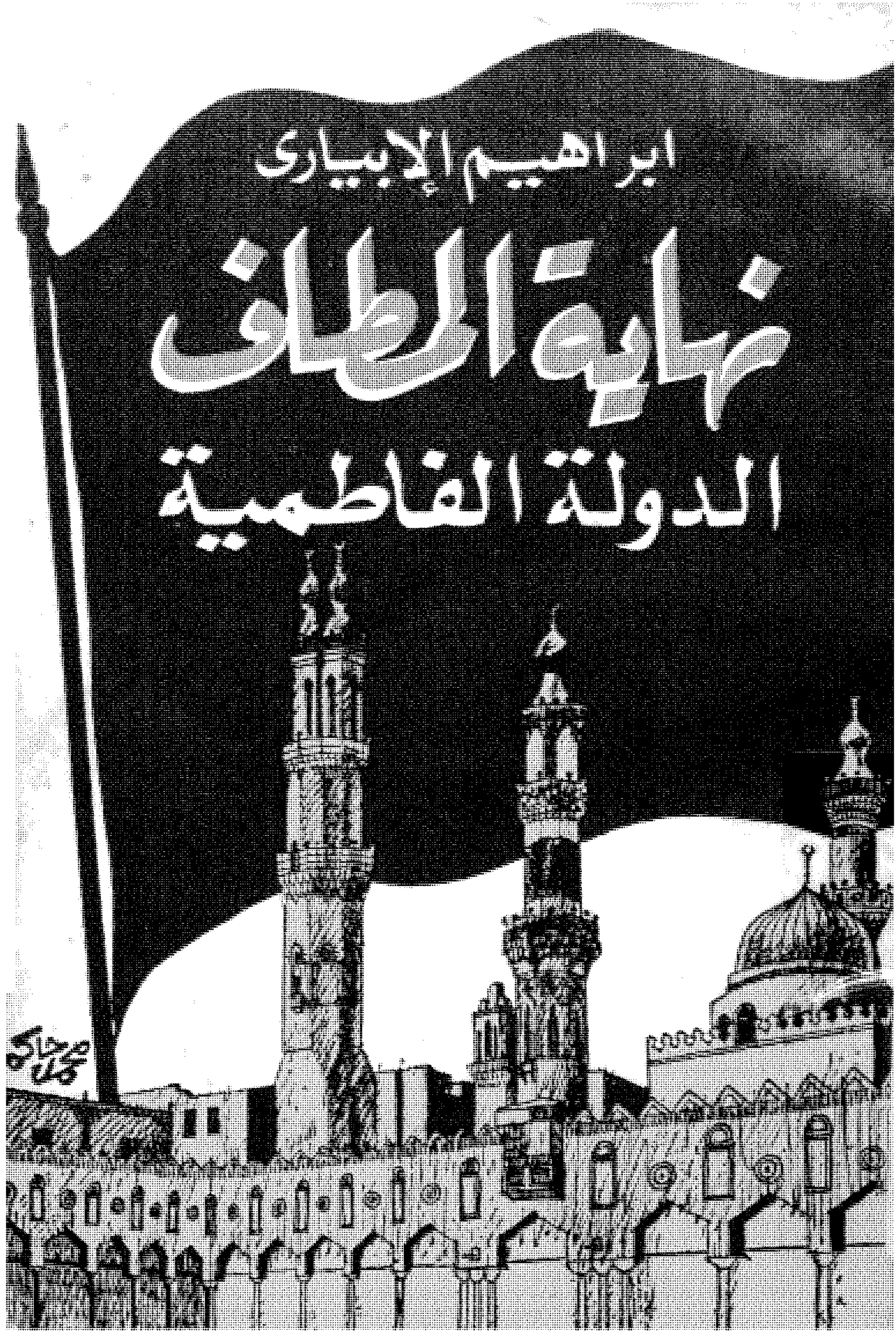

ابراهيم الإبيارى
نهاية المطاف
الدولة الفاطمية

ابراهيم الإبيـارى

نهاية المطاف

مطبوعات الشعب

الإهداء

... الى التى وفت لى
فملأتنى حيـــاة وملأتنى
أمــلا .. ووفيت لهـــا
فوصلت حياتى بحياتها ..
وأملى بأملها ..

ابراهيم الابيارى

تقديم

الطبعة الثانية

منذ أعوام تربى على العشرة بقليل صـــدر هـذا الكتاب حلقة من حلقات التاريخ لذلك الصراع المتصل بين العرب الذى بدأ على الحـــكم جاهليا واســـتمر اسلاميا دولة بعد دولة ٠

وقد ضمنت هذا الصراع كتبا أربعة ، هذا الكتاب، وكتبا ثلاثة أخرى تسبقه هى : مغيب دولة ، وميـلاد دولة ، وقيام دولة ٠

وقد بسطت فى هذه الكتب ، كما بسطت فى هذا الكتاب أســـباب هذا الصراع ومداه وآثاره ، وماناله المشاركون فيه والمتصلون به ثم ماناله الشعب من حول هؤلاء وهؤلاء ٠

وسيرى القارىء هذا كله مفصلا فى كل كتاب من هذه الكتب الأربعة وسيرى معى أن فقدان الشورى فى كل هذه المراحل كان وراء هذا كله ، ان لم يكن سبب هذا كله ٠

وحرصى على أن تكون هذه الصـفحات المؤرخة لهذا الصراع كاملة هو الذى حفزنى الى أن أعيده فى طبعته هذه الثانية بدار الشـــعب التى صـــدر عنها الكتاب الثالث فى هذه الحلقــات التاريخية ، وهذا بعد نفاذ طبعته الأولى ٠

وانى لأرجو أن أضم الى هـذين الـكتابين ، هـذا الكتاب وقيـام دولة ، الكتابين الآخرين : مغيب دولة وميلاد دولة ، فى طبعة ثانية ، لأضع بين يدى القارىء طبعة موحـدة تضم هذا الصراع الذى هو وان كان مشكلة من مشاكل الماضى ، فهو لا يزال مشـكلة من مشاكل الحاضر فيها العظة وفيها العبرة .

هدانا الله الى سواء السبيل .

ابراهيم الابيـارى

شـهر ربيع الأول ١٣٩٨

فبرايـر ١٩٧٨

تقديم

الطبعة الأولى

هذا كتاب يضم الحقبة الأخيرة من صراع بدأ بين الهاشميين والأمويين وانتهى بين العلويين ــ الفاطميين ــ والعباسيين ، بدأ على أرض غير أرض مصر وانتهى على أرض مصر ، شاركت فيه مصر حين بدأ بقلوبها ، وشاركت فيه مصر حين انتهى بقلوبها وأرواحها ودمائها ، وكان حين بدأ جزءا من تاريخ مصر العام ، وكان حين انتهى جزءا من تاريخها الخاص ينضاف الى تاريخها العام .

لهذا كانت هذه الحقبة تعنى مصر دولة وتعنيها جزءا من الدولة العربية ، وكانت هذه الحقبة تعنى الدولة العربية كلها لأنها حلقة من حلقات تاريخها العام . ولقد دلت مصر بما حملت فيها على أنها تعطى القضية العربية أكثر مما تأخذ ، تصبر لها صبر الأم البارة لولدها ، يعنيها أن يكمل ولا يعنيها ما تبذل .

ثم هى حقبة فيها عظات كثيرة ، أبلغها تلك العظة التى يمليها التناحر وتمليها الفرقة ، وأدناها تلك العظة التى يمليها نسياننا أنا اخوة على رأى ونهج ، فهى عظات فى عظة ، وعظة تصورها عظات ، وما أحرصنا على أن ننتهى الى هذه العظة ، ثم ما أحرصنا على أن نمكن لها بتلك العظات . ومن لم يفد من أمسه لم ينفعه يومه ، ومن لم ينفعه يومه عاش لا أمل له فى غده .

ولقد استصفيت ما فى هذا التاريخ الطويل من أحداث يأخذ بعضها برقاب بعض ، ويمهد سابقها للاحقها ، أريد أن أجعل منها قصة موصولة الحلقات لها سرد ولها مغزى ، لا أنثر هذه الأحداث متفرقة غير موصولة فينقطع السرد ويضل المغزى .

والتاريخ بمعناه العام تنتظمه كتبه ، فيها المادة أوعب ما تكون وأجمع ما يصل اليها جمع ، واني حين أعرض هذا التاريخ أبغي ان أصوره هذا التصوير الخاص الذى أشرت اليه ، وما أنا بمن عاصر تلك الأحداث فيرويها عن مشاهدة أو سماع ، ولا من رواة الأخبار فأروى هذه الأحداث رواية المؤرخين الجامعين ، ولكني قارىء لهذا التاريخ المجموع مفيد من أحداثه أحاول أن استنطقها ما تضمر ، لأنقل هذا الذى تضمر الى الناس ليفيدوا منه فائدة جديدة ، فائدة تنضم الى مكتوبه .

وما أراه شيء وما يراه غيرى شيء ، وقد يلتقى هذان الشيئان وقد يفترقان ، وهما للخير اتفقا أو افترقا ، ما أمليا عن صدق ولم يمليا عن غرض .

والتاريخ العام كما يكون باطلا من البطلان ، حين لا يجمع الا الزيف ، كذلك يكون التاريخ المستخلص حين يوجهه الحق .

وليس أحب الى بعد هذا من أن أكون وفقت فيما استمليت واستخلصت ، ووفقت فيما عرضت ، ووفقت فيما رأيت ، ثم ما أشقاني ان ضننت بالرأى ، أو عدلت به عن نهجه ، ثم ما أعذرنى مع زلات الرأى ، فما على الا أن أجتهد ، وما توفيقى الا بالله .

ابراهيم الابيـــارى

نوفمبر ١٩٦١

١

أحب أن أصلك بأول الحديث حتى لا يلتوى عليك آخره ،وأحب أن أقدم لك هذا الشطر الأول من الحديث مجملا بعد أن قدمته لك فى كتب ثلاثة ــ مغيب دوله ، وميلاد دوله ، ثم قيام دوله ــ مفصلا ، وأحب من هذا الحديث المجمل وذاك الحديث المفصل أن تكون بين يديك صفحة يمهد أولها المجمل لآخرها المفصل ، فاذا انت متهيىء بهذا التمهيد لما سيطالعك به ذاك التعقيب ، موصول بالأسباب والنتائج ، تملى معى عن علم وتستقرىء عن علم ، مستحضر الأحداث الرئيسية تباعا لا يضل عنك منها شىء ٠

فهذا الشق الذى أنا آخذ معك فيه على صفحات هذا الكتيب لم يبدأ مقطوعا عما قبله ، بل هو امتداد لما سبقه ، وكان ما سبقه هو الذى أملاه ٠ وكم من أحداث تملى ولكن الزمن يقطع عليها مسارها ، فاذا هى عند النقطة التى بدأت منها ، لا ينضاف اليها جديد ولا يكتب لها اتصال ، يجمد بها هوانها عن أن تحمل الدوافع فى طياتها ، ويهون معها أصحابها فلا يدفعونها لتمضى موصولة ٠

ولكن هذا الحادث الذى أملى هذا التاريخ لم يقو الزمن على أن يقطع مساره ، لأنه كان جللا ، ولأن أصحابه كانوا أجلاء ، فغلب الزمن بقوته وبايمان أصحابه به ، ان خفى شيئا حركه أصحابه لينتعش ، وان فتر أصحابه شيئا حركهم هو لينشطوا ، فلقد عاشوا به موصولين وعاش هو بهم موصولا ، حيا بهم وهم أحياء به ، وكان قضية لابد أن يتوجها حكم ، ولابد أن يكون ذلك الحكم كما أراد أصحابه أن يملوه ، لأنهم كانوا يرون الحق معهم ٠

ويثين لك ان تعرف كيف بدأت تلك القضية ، او تلك القصة التى أملت تلك القضية ، تعرفها فى ذلك الاجمال الذى تراضيناه معا ، حتى لا اثقل على نفسى بتفصيل ما قد فصلته من قبل ،

وحتى لا أثقل عليك فأشغلك بأول الحديث ــ الذى هو تمهيد ــ عن آخره الذى هيأت هذا الكتيب له .

والقصة التى أملت هذه القضية قديمة كانت حدسا من الحدس حين بدأت لا يعدو أن يكون رجما بالغيب ، ثم اذا هو حق كله يمكن آخره لأوله ويغرى أوله بآخره .

فلقد كانت الأمور فى الجاهلية العربية لعبد مناف تجرى صفوا بين يديه ، الى أن ولد له ولداه : هاشم وعبد شمس ، توأمين ، وعقب هذا موصولة بعقب ذاك .

وما كان للولدين أن يعيشا موصولين على هذا النحو المعوق ، وما كان للأب أن يتركهما لينشآ جامدين معا ساعيين معا ، فعهد الى طبيب الحى أن يقطع تلك اللحمة الهينة الواصلة ، فاذا المبضع حين يفصل يسيل دما ، واذا هذا الدم يؤوله العرافون شرا مستطيرا يثور بين أعقاب هاشم وأعقاب عبد شمس .

ولقد آمن بهذا عبد مناف ، لأنه كان يؤمن بما يقول به العرافون وآمن به الوليدان حين شبا لأنهما كانا يؤمنان بما يقول به العرافون، وآمن به الناس من حول الأب ومن حول الوليدين ، لأنهم كانوا يؤمنون بما يقول به العرافون ، فاذا هذا الايمان يملى بعضه على بعض ، ويساند بعضه بعضا تمتلىء به نفس الأب فيضفيه عن وعى وعن غير وعى على ولديه ، وتمتلىء به نفسا الوليدين فيمكنان له فى قلبيهما عن وعى وعن غير وعى ، وتمتلىء به نفوس الناس فيهيئان له فى قلب الأخوين عن وعى وعن غير وعى . وتمضى الأيام تعطى أخا وتحرم أخا ، فاذا الذى أعطى من متاع الحياة وجاهها حريص على ما نال يخاف أخاه عليه ، واذا الذى حرم متاع الحياة نافس على أخيه يريد أن يزحزحه من مكانه لينال ما فى يده ، واذا كلاهما على غير الرضى بمكان أخيه منه .

فلقد حظى هاشم بما لم يحظ به عبد شمس من شئون قريش ، وكما حظى بهذا الجاه هاشم دون أخيه عبد شمس ، حظى به ابنه عبد المطلب دون ابن عمه أمية ، واذا بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم من عقب هاشم تضيف الى هذا البيت الهاشمى عزا لم يبلغه البيت العبشمى ، واذا البيت الهاشمى مذكور ، واذا البيت العبشمى خامل .

ولو أن القلوب لم تتفتح لما تفتحت له ، ولم يدخل عليها العراقون بما دخلوا عليها به ، ولم يملأها عليهم الناس بما ملئوها به ، لاستقبل الأخوان الحياة استقبالا آخر - لا نحسبه يكون صفاء كله ، فما تجردت القلوب عن أن تنفس وعن أن تحقد - استقبالا لا يعتمد على هذا الأساس من الشر الذى صبغ كل شيء بصبغته .

واذا العداء بين الأعقاب الذى بدأ ظنا يستحيل فكرة تدور فى الرءوس ، ثم كلاما تتحرك به الألسنة ، حتى اذا ما قبض الله اليه رسوله أطل الأمويون يريدون الدنيا فى تردد أولا ، يخافون بنى هاشم ويخافون على رأسهم عليا . لهذا لم يقدموا وظلوا يرقبون الأمور وهى تجـرى ، كلما مرت بهم فرصة غنموها ، وان فقدوا الفرصة أوجدوها . كانوا متطلعين الى الحياة التى حرموها فكانوا جادين ساعين ، وكان الهاشميون يرون الحيـاة لهم فكانوا غارين غافلين .

ولقد سكن الأمويون خلافة أبى بكر وعمر يترقبون ، حتى اذا ما ولى الخلافة عثمان التفوا به ، لأنه كان رجلهم ، والتفوا بالحياة لأنهم رأوها أقبلت عليهم ، فكانوا لا يحبون أن يمضى شيء فيها الا وعلمهم به موصول . يعينون عثمان على أمره ، وهم يعينون أنفسهم ، ويفتاتون على الهاشميين وهم يريدون أن يباعدوا بين الهاشميين وبين عثمان ، ليقربوا هم الى الحكم خطوة ويبتعد الهاشميون عن الحكم خطوة ، حتى اذا ما كانت الفتنة على عثمان - وكانت حظوتهم عنده من أسبابها الأولى - دخلوا فيها دخول المحب لشيء فيها الكاره لشيء فيها ، يحبـون فى أعماق نفوسـهم أن تمضى الفتنة ليدفع الهاشـميون ثمنها متهمين ، ويكرهون فى ظاهر أمرهم أن تمضى الفتنة ، ليقبضوا هم ثمنها غير متهمين ، وتنتهى الفتنة بمقتل عثمان فاذا الهاشـميون خاسرون ، واذا الأمويون كاسبون ، فلقد غـدا الأمويون أصحاب دم عثمان المراق ظلما ، وغدا الهاشميون ، وعلى رأسهم على ، المطالبين بدم عثمان .

ويلى على الخلافة فى هذا الجو الثائر الصـاخب ، يمتنع عليه معاوية - وكان واليا على الشام - ويمتنع على على غير معاوية : من

لهم أطماع في الحياة ، يرون معاوية سخياً بها عليهم دون علي ، ومن ليست لهم أطماع في الحياة ، ولكنهم على غير حب لعلي ، ومن هو غير طامع ولا كاره ولكنه كان على غير رأى علي ، فاذا الاجماع على اختيار علي ينقلب غير اجماع ، واذا علي يخرج للقاء عائشة بمن انضم اليها يوم الجمل ، واذا المسلمون يلقى بعضهم بعضا محاربين بعد أن كانوا يلقون معا عدوهم محاربين ، ويقتل مسلمون هنا كما يقتل مسلمون هناك ، ويخرج علي من هذه المعركة منتصرا شبه مهزوم ، فلقد حقق كسبا له ولكنه لم يحقق وحدة للأمة .

وما يكاد علي يفرغ من هذه حتى يخرج للقاء معاوية في صفين ، ولئن كانت الأولى حربا هينة لأنها لم يحركها الطمع في الملك ، فلقد كانت الثانية حربا عنيفة لأن الطمع في الحكم كان الباعث لها ، ولئن كانت الأولى هينـــة ، لأن كفة علي كانت الراجحة ، فلقد كانت الثانية قاسية لأن الكفتين كانتا أقرب الى التعادل ، من أجل هذا خسر علي وخسر معاوية ، ولم يخسر علي نفسه وانما خسر جملة من أصحابه المسلمين ذوى الخطر في الاسلام ، ولم يخسر معاوية نفسه وانما خسر جملة من المسلمين ذوى الخطر في الاســـلام . وتنتهي الحرب الى مهادنة ثم الى تحكيم أريد به غير وجه الحق ، فاذا معاوية قد مكن لأمره ، واذا علي قد فسد عليه أمره ، واذا خلافة علي التي أرادها أمنا وأرادها معه من اختاروه أمنا ، تمتلىء اضطرابا وبلبلة ، واذا أمر المسلمين كلهم الذي أرادوه آمنـــا يعود فوضى أو شيئا قريبا من الفوضى ، واذا خارجون ثلاثة — هم : ابن ملجم والبرك بن عبـــد الله التميمي وعمـــرو بن بكـــر السعدي — يجمعون على قتل علي ومعـــاوية وعمرو بن العاص ، ويرون أن قتلهم انقاذ للأمة من هذه الورطة . ويفلح ابن ملجم في قتله عليا ، ويخفق البرك وعمرو في قتلهما معاوية وعمرو بن العاص .

وهكذا اعانت الحيـــاة معاوية ولم تعن عليا ، ومكنت له ولم تمكن لعلي . وخلا الطريق أمام معاوية الى هذا الحكم الذي دبر هو له وأعانه الدهر عليه .

ووجد معاوية الحسن بن علي دونه على أول هذا الطريق فتهيأ له يدفعه عنه ، وما كلفه ذلك حربا ولكن كلفه شيئا دون الحرب ، شيئا يسيرا كل اليسر . فلقد اشترى معاوية هذا الحق الباقي للحسن بدراهم معدودات وبأعراض يسيرة ، وما ان أرضى الحسن ورضى الحسن فباع ، حتى نكث معاوية فيما شرط على نفسه ، واذا الحسن قد خرج من دنياه وأخرج معه الهاشميين من دنياهم بتلك الصفقة الغابنة ، واذا معاوية قد دخل دنياه وأدخل معه الأمويين دنياهم التي كانوا يطمعون فيها معه بهذا الثمن الذى دفعه من حرب ومال منقوص وعهد منكوث .

٢

واستقامت الحياة لمعاوية كما استقامت للأمويين ، وأقاموا دولة ، هي وان كانت للمسلمين في معناها العام ، فلقد كانت للأمويين في معناها الخاص ، فهي لهذا حملت اسمهم الخاص ولم تحمل الاسم العام . وما استقبل المسلمون بهم حكومة على نمط الحكومة الأولى أيام الخلفاء الراشدين ، يختارون من بينهم خليفتهم من هذا البيت ومن ذاك البيت ، يجعلون الخلافة لخيرهم من المسلمين ويختارون الخليفة كما يشاءون ، بل استقبل المسلمون أمرهم ، لتكون الخلافة في هذا البيت الأموى ، وليكون الخليفة من هذا البيت الأموى ، وهكذا رد الأمويون أمور المسلمين الى جاهليتهم الأولى ، على صورة أخرى ، وحققوا بهذا النصر ما حرموه أولا ، وما غلبهم عليه الهاشميون .

بهذا دخل معاوية الحكم يريده لنفسه ويريده لولده ، فما مضت الأيام غير قليل حتى شمر يدعو لابنه يزيد . وكان غريبا على المسلمين — وهم الذين ألفوا الحياة الفا آخرا حياة الخلفاء — أن ترضى نفوسهم بما رضيت به نفس معاوية ، فامتنعوا عليه شيئا ، لم يظهر هذا الامتناع الناس كلهم ، لأن الناس كلهم كانوا لا يملكون

أمورهم في ظل اغراء معاوية وعنفه ، وكان الذين امتنعوا على معاوية نفرا من أولي الرأي ، فاحتال معاوية ما وسعته الحيلة ، حتى اذا ما أعيته الحيلة مع نفر منهم حملهم على ما يريد قسرا ، فاذا يزيد ولي عهد ، واذا يزيد خليفة على المسلمين بعد معاوية .

ولكن الهاشميين الذين استكانوا شيئا بعد مقتل علي ، ثم استكانوا شيئا بعد نزول الحسن عن حقه . كانوا لما يذب في نفوسهم استمساكهم بحقهم ، وكانوا لما يذب في نفوسهم خلافهم على الأمويين، فانتعشوا شيئا خلافة يزيد ، يرونه دون أبيه قوة ويرونه دون أبيه حزما . والناس الذين خافوا معاوية مع الهاشميين لم يخافوا يزيد مع الهاشميين ، فاذا هم يحركون الحسين للأمر .

وما كان الحسين فاترا عن حقه ولكنه كان فاترا بفتور الناس . وحين أحس في الناس نشاطا الى هذا الحق ، نشط بنشاطهم ، فاذا هو ثائر بهم على يزيد ، خارج عليه .

ولكن يزيد كان ملكا ذا دولة ، وكان الحسين ثائرا قد التف به الثائرون . وكان يزيد ذا حشد كثير ، وكان الحسين ذا حشد قليل . وكان يزيد ذا مال يجتمع اليه من الخراج المفروض ، وكان الحسين لا مال له غير ذلك المال الذي يجود به الواهبون . وكان يزيد ذا ملك قائم يرغب اليه الناس ويرهبونه ، وكان الحسين يسعى الى ملك قد يحققه وقد لا يحققه ، فلم يجد راغبا ولا راهبا ، اللهم الا هؤلاء الذين جمعهم اليه الايمان بحقه وحق بيته ، ولقد كان هؤلاء المؤمنون بحقه على حرف يخافون أكثر مما يرغبون .

لهذا كله لم يقو الحسين على حرب يزيد . وانفض الناس عن الحسين ليلتفوا حول يزيد . واذا الحسين مقتول شر قتلة ، واذا جملة كبيرة من أهله الذين ثبتوا معه ، مقتولون هم الآخرون شر قتلة ، واذا الأمر يخلص ليزيد بعد مقتل الحسين ، كما خلص لمعاوية بعد مقتل علي على يد ابن ملجم .

٣

وما كان هذا الخلاف بين الهاشميين والأمويين خلافا يقوم حول فرد • وحول حق لهذا الفرد ، اذا ما ولى هذا انفرد ولى هذا الخلاف حوله وحول حقه • ولكنه كان خلافا يقوم حول بيت ويقوم حول حق لهذا البيت ، فكان مضى هذا الفرد مدفوعا عن هذا الحق يمكن لهذا الخلاف ويحييه ، وكان ما يناله هؤلاء الماضون مدفوعين عن هذا الحق ، من قتل واسفاف فى هذا القتل ، مما يهيج هذا الخلاف ويقويه •

ولقد قتل على بيد غير يد الأمويين فأحزن ذلك الهاشميين ، وكاد أن يفت فى عضدهم ، اذ رأوا فيه غضبة من غضبات الرأى العام • وحين قتل الحسين بيد الأمويين أحزن ذلك الهاشميين ولم يفت فى عضدهم ، لأنهم رأوا فيه الناس غاضبين معهم على الأمويين •

وما فات الهاشميين مع مقتل على بيد ابن ملجم بلغوه مع مقتل الحسين فى كربلاء بيد الأمويين ، ولقد قتل على مطعونا لم يمثل به، وقتل الحسين بسيوف الأمويين ثم مثل به ، ولقد طعن على ومضى موفور الجسم لم يفصل منه عضو ، وقتل الحسين فاذا رأسه يفصل عن جسمه ، واذا هذا الرأس يحمل الى يزيد ليشفى بمرآه نفسه •

من أجل هذا نسى الهاشميون مقتل على وذكروا مقتل الحسين ، فاذا هم حانقون واذا هم متألبون ، واذا الراغبون فيهم المؤمنون بحقهم يملكون الأسباب لينشروا دعوة ، وليجمعوا الناس حول هذه الدعوة•

وما قتل الأمويون مع الحسين كل آل الحسين ، وما كان فى مقدورهم أن يفعلوا هذا الا اذا قووا على ان يخلصوا من خلق كثير ، والا اذا قووا على أن يلحقوا الصغار بالكبار ،والا اذا قووا على أن يشقوا بطون الأمهات عن أجنتها • وما نظن الأمويين كان فى ملكهم أن يفعلوا هذا كله ، وان كانوا قد فعلوا شيئا قريبا من هذا كله •

وكان محمد بن الحنفية بن على بن أبى طالب فيمن نجـوا من بطش الأمويين ، ولعل الذى مد فى حيـــاته أنه كان فيمن بايعوا يزيد ، ولقد أكرمه يزيد حين ولى ودعاه اليه فى دمشق وأعطاه الـكثير •

ولكن الذى لا شك فيه أن ابن الحنفية أعطى يزيد حين أعطى عن رهبة لمعاوية أولا ، كما فعل أخوه الحسين من قبل ، حين نزل لمعاوية عن حقه فى ظروف ربما كانت أطيب مواتاة من تلك الظروف التى بايع فيها ابن الحنفية ليزيد ، وحين دعا يزيد اليه ابن الحنفية أول ما ولى ، ولبى ابن الحنفية وقبل عطاءه ، لم يكن الحسين قد تهيأ للثورة بيزيد ، وكان يرى الأمور تجرى على حال من الملاينة بين الهاشميين والأمويين ، فلم يجد غضاضة فى أن يخرج الى دمشق ، ولم يجد غضاضة فى أن يقبل عطاء يزيد .

لعل هذا كله ، ولعل شيئا من هذا كله ، هو الذى مال بابن الحنفية ميلته هذه . ولكنا نراه حين هب عبد الله بن الزبير يدعو لنفسه بعد مقتل الحسين أبى عليه ابن الحنفية ما أراد ، قد يكون ذلك برا منه بعهده ليزيد ، ولكنه على كل حال فتح بهذا الاباء الباب أمام الشيعة ليلتفوا حوله ويبدءوا دعوتهم وينظموا الصفوف لهذه الدعوة .

فلقد خرج من بين الصفوف المختار بن أبى عبيد الثقفى يدعو لمحمد بن الحنفية ، ولكن ابن الحنفية على هذا لم يلق بالا لهذه الدعوة ، لأنه كان قليل الثقة بأهل الكوفة الذين خذلوا أباه عليا ، ثم خذلوا أخاه الحسين ، ولكن الدعوة على الرغم من هذا مضت على صورة من صورها لتؤكد لك أن هذا الخلاف حين وجد وحين امتد التف حوله آله ، ولف حول آله غيرهم ، أن ونى الأهل لم ين غير الأهل ، وان ونى غير الأهل حركهم له الأهل ، خلاف اعتمد على سببين وكان هذا السبب الثانى ــ نعنى هؤلاء المؤمنين بهذا الحق من غير أهله ــ أقوى السببين ، وهو الذى مد فى أجل هذا الخلاف ، وهو الذى مكن لهذا الخلاف ، لينصر بيتا على بيت . ولو أن هذا السبب الثانى فتر أو وهن لما تهيأ للسبب الأول أن يمتد ويبقى ، ولا قدر له أن يعيش ليبقى فاترا ضعيفا لا يعدو أن يتمثل فى كلمات لا افعال .

ولكن بقاء آل هذا الحق على حقهم لا يحيدون عنه أعطى المؤمنين به البقاء عليه وأعطاهم القوة ، فلو استكان أصحاب الحق ورضوا غير حقهم لفتوا فى عضد الداعين ، ولما وجد الداعون لدعوتهم سبيلا ولا تأييدا .

وهكذا تميزت هذه الدعوة بالصفات التى كتبت لها البقاء ، فلقد استحالت عقيدة لها قدسيتها فى نفوس الداعين ، ولها قدسيتها فى نفوس أصحابها • من أجل ذلك عبرت على هامات الأيام لا يردها ارهاب ولا يثنيها عنف ، ولا يهون منها اغراء ، ولا يصرفها وعد أو وعيد •

٤

ويموت ابن الحنفية بعد أن أقامه المؤمنون به اماما عليهم ، ما كان يعنيهم أنه أيد دعوتهم أو لم يؤيدها ، وما كان يعنيهم أنه حامل معهم رايتها أو غير حامل ، بل لقد قنعوا بأن يجدوا من يلتفون حوله ، ومن يذودون باسمه ، ومن يفيدون من شخصه ، وهكذا كانت تلك الفترة ، التى كان فيها ابن الحنفية اماما ، من تلك الفترات التى حمل فيها المؤمنون بالدعوة أكثر مما حمل أهلها . وما استوت فترات الدعوة بل كان منها شيء لهذا الذى كان فى حياة ابن الحنفية ، وكان منها شيء يخالف الذى كان فى حياة ابن الحنفية . حمل منه أهل الحق أكثر مما حمل الداعون اليه ، وكان منها شيء استوى فيه نصيب هؤلاء ونصيب هؤلاء .

وما بنا أن نرمى ابن الحنفية بأنه كان حربا على الدعوة وكان لا يريدها ، فما من شك فى أن ابن الحنفية كان على رضى بها ، وكان على حذر من عواقبها ، فوقف منها موقف الراغب الحذر يملى عليه حذره ، ولقد كان حذره فوق رغبته ، من أجل ذلك ترك المختار لابن الزبير يحاربه ، كما ترك عبد الملك بن مروان هذين الخارجين عليه يقتتلان . ولكن عبد الملك حين فعل ما فعل كان يبغى أن يضعف هذا ويضعف ذاك ، فاذا ما قضى أحدهما على صاحبه انفرد له عبد الملك يقضى عليه . من أجل ذلك ما كاد يفتك ابن الزبير بالمختار حتى فتك عبد الملك بابن الزبير وعاد اليه سلطانه كاملا .

وكأنى بابن الحنفية كان قد أملى عليه حــذره أن يفعل فعل عبد الملك على صورة أخرى ، فترك هو الآخــر عبد الله بن الزبير للمختار يقاتله ، وكأنى به كان يقدر ظفر المختار بابن الزبير ، وكأنى به كان يقدر حين يظفر المختار أن يجاهر بما يخفى ، اذ عندها يكون أملك لأمره ، وأقوى بهذا الجيش جيش المختار الذى كتب له النصر .

وهو لا شك حذر أملاه هذا الدرس القاسى الذى تلقــاه ابن الحنفية من مقتل الحسين ، فلقد ظهــر الكوفيون معــــه أولا ثم نكصوا على أعقابهم ثانيا ، وما أراد ابن الحنفية أن يدخل التجربة التى دخلها الحسين من أولها ، ولكنه أراد ان يدخلها من آخرها .

من أجل هذا تلبث . ولقد حفظ عليه تلبثه حياته ، ولم يعرضه لمحنة ، كما قد حفظ تلبثه هذا للدعوة بقاءها ، فما كان قتل المختار — كما قلت لك — الا اضعافا لسبب من سببى الدعوة ، وهى باقية ما بقى لها السببان ، أو بقى لها سبب منهما ، ولعل ابن الحنفية لو ظهر فقتل لجر ذلك الى اضعاف السببين معا ، وجر ذلك عبد الملك الى قتل ابن الحنفية وقتل جملة معه من آله ، فتكون النكبة نكبتين . نكبة فى آل الحق ونكبة فى المؤمنين بالحق ، قد تجاوز المدى فتسىء اساءة تعوق الدعوة . وحين تجتمع هاتان النكبتان على الدعوة قد تئدانها فى مهدها ، وقد تدفنانها عمرا طويلا .

بهذا نفسر ما كان من ابن الحنفية لا نؤوله تأويلا يسىء اليه . فما من شك فى أنه كان يملك مع الهاشميين ايمانا بحقه وحقهم ، ولكنه كان يملك مع هذا الايمان هذا الحذر الكثير الذى جعل نفرا يؤولونه تأويلا آخر لا يرضى .

هذا الى أن المختار حمل الدعــــوة أغراضا تبعد بها عن المنهج الدينى السليم ، وكان دخول ابن الحنفية معه تصديقــا منه بهذا الذى يقوله المختار . وما نظن ابن الحنفية ان كسب الحرب كان سيكسب الناس فى ظل ما يقوله المختار عنه ، بل كان سرعان ما سيخسر الناس ، ويخسر ثمرة النصر ، وتعود الدعــوة باطلا من ~~البطلان ، ويعود هذا البيت الهاشمى~~ وليس له حق يجمع الناس عليه .

٥

ولقد صدق ابن الحنفية حدسه ، ان كان هذا حدسه ، فلقد تنكر الناس لدعوة المختار ، ولكنهم لم يتنكروا لهذا البيت ، فما ان ظهر ابنه أبو هاشم حتى التفوا حوله واتخذوه اماما يدعون له ، غير مبالين بغلو المختار فى الدعوة لأبيه ابن الحنفية ، حين ادعى له ماليس لانســان ٠

وحمل أبو هاشم الدعوة وكان الامام ، يلقاه الشيعة ويلقاهم هو ، يخفى الدعوة ويخفونها ، ويدعو معهم سرا ويدعون هم معه سرا ، وفى رءوسهم جميعا هذا الماضى كله بعبره وعظاته ودروسه ، يفيدون مما لهم من سابقات فى القرابة والجهاد ، ويفيدون مما كان لخصمهم ضدهم من تنكيل بهم ، لا ينسون به كربلاء بوحشــيتها وقسوتها ، فلقد كانت لهم نعم العون ونعم السبب ، ولكنهم على هذا كانوا حذرين يسعون على حذر ويدعون على حذر ٠

وينزل أبو هاشم على سليمان بن عبد الملك ضيفا فى دمشق ، ما نزل أبو هاشم بسليمان عن ارادة منه لذلك النزول ، ولكنه نزل به عن دعوة كانت من سليمان اليه ، ولم يشأ أبو هاشم أن يرفض دعوة سليمان فيتغير عليه سليمان ٠ ولكنه قبلها ليؤنس بها سليمان ويزيل الوحشة من قلبه ٠ هكذا ظن أبو هاشم فقبل الدعوة ، ولغير ما ظن أبو هاشم كان يدبر سليمان ٠ فلقد كان أبو هاشم يدبر لأمره على صورة وكان سليمان يدبر لأمره على صورة أخرى . كان أبو هاشم يريد أن يصرف عنه سليمان بملاينته له ، وكان سليمان يريد أن يتمكن من أبى هاشم بملاينته له ٠ وكما احتاط أبو هاشم احتاط سليمان ، وكانت حيطة سليمان أبعد من حيطة أبى هاشم ٠ ولقد خرج أبو هاشم عن سليمان لم يلق كيدا فظن أنه غلب بحيطته حيطة سليمان ، وما ظن أبو هاشم أن سليمان كان أبلغ منه حيطة حين لم ينل منه فى حضرته فيضم الى ما يؤخذ على الأمويين نكرا جديدا ينضم الى هذا النكر الباقى لهم فى رءوس الناس وفى قلوبهم عن كربلاء ٠ بل لقد خلى سليمان أبا هاشم ليخرج مطمئنا كما دخل

مطمئنا ، حتى اذا ما كان أبو هاشم ببعض الطريق عرض له رجل من الرجال لم يثر فى نفس أبى هاشم شكا ، فأنس به أبو هاشم ونزل عليه يقبل قراه ، فاذا هذا القرى يحمل السم ، واذا السم يقر في جوف أبي هاشم ، واذا أبو هاشم يحس الم السم فى جوفه مخرجه من عند هذا الرجل ، ويحس أنه ميت ، ويحس أن حيلة سليمان قد غلبت حيلته ٠

وحين عزت على أبى هاشم نفسه عزت عليه الدعوة التي يحملها، وحين أحس أبو هاشم أنه ميت لم يرد لهذه الدعوة أن تموت ، وحين أحس أنه ذاهب لم يرد لهذه الدعوة أن تذهب ، وحين أحس أنه لم يحتط لنفسه أراد أن يحتاط لهذه الأمانة التى يحملها .

وهكذا كان هؤلاء الناس كبارا تهون عليهم نفوسهم ولا تهون عليهم أماناتهم ، فان خسروا حياتهم لم يحبوا أن يخسروا أمانتهم ، من أجل ذلك عرج أبو هاشم الى الحميمة - قرية صغيرة الى الجنوب من البحر الميت على مقربة من العقبة - وكان بها منزل محمد بن عبد الله بن العباس ٠

فقد رأى أبو هاشم ان أولى الناس بحمل هذه الدعوة عنه محمد بن على : وكان أقرب الناس اليه فى طريقه هذا الذى يسلكه لا ندرى اللأولى نزل أبو هاشم عن دعوته لمحمد بن على ، لأنه رآه أقدر عليها من غيره من بنى أعمامه ، أم للثانية وأن أبا هاشم وجد الشقة بينه وبين بنى عمه بعيدة وخاف أن يدركه الموت دون أن يوصى ، وخاف ان مات دون أن يوصى اختلف بنو عمه عليها من بعده. ولهذا آثر بها أقرب الناس اليه مكانا لا قرابة ، فعرج على محمد يوصى بها اليه ٠

ولعل سببا آخر ينضاف الى هذين السببين هو ذلك الخلاف في الرأى بين الشيعة الكيسانية ،شيعة ابن الحنفية وابنه أبى هاشم، وبين شيعة بنى عمه من أولاد فاطمة ٠ وعلى أية حال فما منع نزول أبى هاشم عن حقه فى هذا الأمر بنى عمه من أولاد فاطمة عن أن يهبوا مطالبين به من بعده ، وأن يخرجوا على العباسيين بعد أن استقام لهم الأمر مطالبين بهذا الحق ، وأن يظلموا على أيدى العباسيين كما ظلموا من قبل على أيدى الأمويين .

٦

وهكذا تحولت الامامة من بيت الى بيت . ولكن البيتين على هذا كانا على بعد قريب بينهما ، فهما ينتهيان الى هاشم ، وهاشم لهما جد ، أعقب هاشم : عبد المطلب ، وأعقب عبد المطلب ، العباس وأبا طالب وعبد الله ، وعن العباس انحدر محمد بن على بن عبد الله ابن العباس ، الذى نزل له أبو هاشم عن الامامة ، ومن صلب أبى طالب كان على الامام الأول الذى اجتمعت عليه كلمة الهاشميين ، ومضى أبناؤه يحملونها من بعده ـ كما مر بك ـ الى أن انتهت الى أبى هاشم . وأنجب عبد الله أكرم البشر على الله ، ورسوله اليهم ، وبه اجتمع العز للهاشميين .

وكان على قد أصهر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فتزوج فاطمة ، وكان له منها ولداه الحسن والحسين ، وكان لعلى من خولة بنت جعفر الحنفية : محمد الذى نسب الى أمه الحنفية .. ولقد انتهى نسل أبى هاشم بموته ، ولكن نسل الحسن لم يكن قد انتهى عند موت أبى هاشم ، فلقد امتد شيئا ، اذ أعقب الحسن ولدين هما محمد والحسن ، ومات محمد دون أن يعقب ، وأعقب الحسن ابن الحسن : عبد الله ، وأعقب عبد الله أولادا أربعة هم : محمد ، وإبراهيم ، ويحيى ، وادريس .

وكذلك لم يكن نسل الحسين قد انتهى عند موت أبى هاشم ، فلقد أعقب الحسين ولدا هو على زين العابدين ، وعن زين العابدين انحدر محمد الباقر (١١٣ هـ) وزيد (١٢٢ هـ) ، وعن محمد الباقر انحدر جعفر الصادق (١٤٨ هـ) وعن زيد انحدر يحيى ، وأعقب جعفر الصادق ولدين هما موسى الكاظم (١٨٣ هـ) واسماعيل . وعن موسى الكاظم انحدر على الرضى (٢٠٢ هـ) وعنه انحدر محمد الجواد (٢٢٠ هـ) وعنه انحدر على الهادى (٢٥٤ هـ) وعنه انحدر الحسن العسكرى (٢٦٠ هـ) وعنه انحدر محمد المنتظر ، وقد اختفى سنة (٢٦٠ هـ) .

هؤلاء هم عقب جعفر من ولده موسى الكاظم ، وأما عقبة من ولده اسماعيل فهم : محمد ، وعن محمد انحدر عبيد الله المهدى (٣٢٢ هـ) .

فانتقال الدعوة الى ولد العباس حين أسلمها أبو هاشم الى محمد بن على بن عبيد الله بن العباس ، لم يكن عن جدب فى بنى أبيه ، نعنى أب أبى هاشم على بن أبى طالب ، وانما كان — فيما يظن — لهذا الخلاف بين رأى أبى هاشم ورأى بنى أبيه . ولعل أبا هاشم حين بعد بأمه عن بنى أبيه لم يرضه الا أن ينزل عنها — أى عن الامامة — لبنى عمه ، ولعل هذا البعد بالأم كان هو السبب فى هذا النزول ولا سبب غيره ، فبنو على من فاطمة كانوا يملكون الدعوة من طريق هذا الطرف الذى يصلهم بأبيهم على ، وهو هاشمى وله سابقته وفضله ، وذاك الطرف الذى يصلهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ، واليه ينتهى هذا الحق كله ، على حين كان يملك أبو هاشم هذه الدعوة من طرف واحد فحسب ، وهو هذا الطرف الذى يصله بجده على بن أبى طالب ، ولقد كان الناس من أولاد فاطمة من على غيرهم من ولد الحنفية من على .

من أجل هذا التف الناس بالحسين بعد أن خرج من الدعوة الحسن أول الامر ، وحين قتل الحسين التف نفر بابن الحنفية على تلك الصورة التى مرت بك ، وعاش ابن الحنفية لايعطى الدعوة الا بقدر ، يمنعه الحذر من أن يستمر .

ولكن ثمة شيئا يجب أن نذكره من قبل أن ننساه ، هو أن مقتل الحسين مع جملة من آله كان قد فت فى عضد شيعة الحسين فالتفتوا عن الدنيا الى الدين ، وأرادوا الزعامة الدينية بعد أن أعجزتهم الزعامة الدنيوية ، ولعل الذى قعد بشيعة الحسين عن الدنيا هو الذى جعل ابن الحنفية على هذا الحذر الكبير ، لا يدفع بنفسه الى الحياة كما دفع اليها بنفسه الحسين ، ولولا أن ابن الحنفية رزق رجلا ذا أطماع ما كان اماما وما كانت حوله دعوة دنيوية الى جانب الدعوة الدينية .

فلقد كان المختار بن أبى عبيد الثقفى رجل حياة قبل أن

يكون رجل دين ، سلك الى السلطان كل سبيل ، وخطب ود كثير من ذوي الجاه ، لا يعرف الثبات على رأي ، ولقد وصل حبله بحبل الأمويين فلم ينل ما يحب ، ثم وصل حبله بحبل ابن الزبير حين أراد ابن الزبير الأمر لنفسه يبغى أن يكون وزيره ، ولكن ابن الزبير كان قليل الثقة به لما عرفه عنه من تقلبه ، وحين خسر المختار هذا الميدان وذا كقصد الى الكوفة ، وكانت الكوفة عندها قد اجتمع فيها قوم على الندم لخذلانهم الحسين وفتورهم عن نصرته . وتمكن هذا الندم من نفوسهم حتى ملأها حسرة وملأها حمية ، واذا هم بعد هذا يجتمعون على الأخذ بثأر الحسين وأهل بيته ، واذا هم يتحالفون فيما بينهم على بذل الاموال والانفس ، وكانت منهم جماعة سموا أنفسهم بالتوابين .

وحين قصد المختار الكوفة قصدها ليفيد من اجتماع التوابين على رأيهم هذا . يريد أن يتخذ منهم أعوانا على ما يريد وما تصبو اليه نفسه ، فينال من الأمويين بعد أن أخفق معهم ، وينال من ابن الزبير بعد أن أبى عليه ابن الزبير ما يطمع هو فيه .

وكان لابد لهؤلاء الذين اجتمعوا ليثأروا للحسين وأهل بيته من امام يجتمعون عليه ويلتفون حوله . وشيعة الحسين كانت قد صدقت عن الزعامة الدنيوية شيئا بعد مقتل الحسين واجتزأت بالزعامة الدينية الى أن يقضى الله أمرا ، فلم يجد المختار في الانحياز اليهم ما يغنيه ، ولعله حين أراد أن يصل حبله بحبلهم لم يجد عندهم السخاء بما يطمع فيه ، ولعله وجدهم لايثقون به كما لم يثق به ابن الزبير . من أجل ذلك التفت الى ابن الحنفية يريد أن يجعله على رأس هذه الدعوة . وعلى رأس هذه الجماعة ، يظهر أنه أمينه ويظهر أنه وزيره .

وما أنسى المختار هذا الاحساس المتباين للناس ، احساسهم للحسين وآله ، واحساسهم لابن الحنفية وولده . فهو من غير شك استغل عزلة ابن الحنفية شيئا ليكون معه صاحب فضل وصاحب أثر .

ولقد أفلح المختار بما كسب أولا حين طرد عامل ابن الزبير

عين الكوفة • وحين انتصر على عبيد الله بن زياد عامل الأمويين على الكوفة • فرغبت الشيعة فيه والتفت حوله • وما من شك في أن هذا أغرى ابن الحنفية شيئا بالمختار فتركه يدعو له ، ولبث هو على تلك الحال من الحذر ينتظر . وكان أن قتل المختار — كما مر بك — فخسر ابن الحنفية النتيجة التي كان يرقبها ، ولكنه لم يخسر الدعوة التي أنشأها المختار له ، والتي ورثها عنه ابنه أبو هاشم .

ولكن شيعة الحسين قد خسرت شيئا بدعوة المختار • فقد أخرجها المختار من أيديهم ، أخرجها عن قصد حين دعا لابن الحنفية، وأخرجها عن غير قصد حين نزل عنها أبو هاشم لمحمد بن عبد الله ابن العباس ، فلو لم تنته هذه الدعوة الى ابن الحنفية ما انتهت الى أبي هاشم • ولا ملك أبو هاشم أن ينزل عنها لمحمد بن علي •

٧

وحين أوصى أبو هاشم الى محمد بن علي لم يرده وحده بهذا الأمر ، بل أراد هذا الأمر له ولولده من بعده ، يبغي أن ينقله كله الى بني العباس • فكان مما قال له : هذا أمر أنت أول من يقوم به ولولدك آخره •

وكان أبو هاشم يعلم أن الأمر ليس أوله كسبا . بل أوله جهاد ، وكان يعلم أن الأمويين ينتهوا • وأن لابد للداعين من صبر على الكفاح . من أجل ذلك أغرى محمد بن علي بهذا الكفاح ، بعد أن أغراه بضمان ثمرة هذا الكفاح لولده .

ومن أجل ذلك طلب أبو هاشم من محمد بن علي أن يبدأ بنشر الدعوة على رأس السنة المتمة للمائة . ولقد كان موت أبي هاشم في سنة ٩٨ هـ • ومن أجل ذلك أوصى أبو هاشم بأن تكون الامامة لإبراهيم بن محمد بعد محمد •

فعل هذا أبو هاشم ليضمن للدعوة فرصة للتمهيد ، وفعل ذلك ليضمن للدعوة الاستمرار ، وفعل هذا ليقيم بيتا على الكفاح

لم تنل منه الأحداث ما نالت من بني أبيه ، وفعل ذلك ليثأر من الأمويين على غدرهم به على يد سليمان • وكان لايريد أن يفوته هذا الثأر ، فاختار هذا البيت الذى رآه قويا . لا يجعل الأمر لمحمد وحده فيبنى محمد ولا يجد ، بل جعله له ولولده من بعده ليمضوا على الطريق كلهم •

وكأنى بأبى هاشم هو الآخر بعد ما أحس الموت ، وبعد ما أحس الحقد على سليمان وعلى الأمويين مع سليمان ـ أو بعدما أحس أن بنى أبيه قد رغبوا عن الزعامة الدنيوية الى الزعامة الدينية ـ قد رأى رأى المختار حين اختار أباه ، فاختار هو هذا البيت العباسى يجعل الأمر لمحمد بن على ثم لولده من بعده ، يستملى من هذا كله •

غير أن أعقاب الحسين الذين خالهم أبو هاشم قد استكانوا شيئا أخذوا يظهرون من بعده شيئا • فلقد تهيأ زيد بن على زين العابدين للدعوة لنفسه • أخذ يدعو سرا حتى اذا ما نذر به هشام ابن عبد الملك أظهر ما كان يسر وبادى هشاما بالعداوة • والتف حول زيد نفر من أهل الكوفة • وخرج بهم زيد لحرب هشام • ولكنهم سرعان ما انخزلوا عنه كما انخزلوا عن جده الحسين . واذا زيد يلقى جيش هشام فى نفر قليل بقوا معه . وقاتل زيد الى أن قتل • وكان ما فعل به بعد مقتله أشنع مما فعل بجده الحسين بعد مقتله . فاذا هو يحرق ، واذا هو تضرب جثته بالعصى حتى تصير رمادا ، واذا هذا الرماد يذرى فى الهواء ويلقى به فى الماء .

وبعد مقتل زيد هب ابنه يحيى ، وبايع له نفر قاتلوا معه ، غير أن نصيبه لم يكن خيرا من نصيب أبيه • فلقد قتل هو الآخر ثم قطع رأسه ، ثم صلب ثم أحرق ، ثم كانت جثته رمادا تذروه الرياح •

ولكنا لا ننسى أن تحرك عقب الحسين للثورة ، وعدولهم عن الانكماش ، كان بعد أن تهيأ العباسيون للأمر وخرجوا اليه • وكأنى بأعقاب الحسين قد أحسوا خطر ما مالوا اليه حين رغبوا عن الدنيا الى الدين • وكأنى بهم قد أحسوا أن العباسيين على وشك أن يظفروا بالدنيا دونهم . من اجل ذلك التفتوا عما رأوه الى شىء آخر يرونه • فتحرك زيد ثم تحرك من بعده ابنه يحيى ، مدفوعين

الى الأمر في عجلة ، حرصا على أن ينالاه دون العباسيين ، وخوفا من أن يستأثر به العباسيون دونهم ، لا يعنيهم أن أبا هاشم قد نزل عنه للعباسيين ، ولكن يعنيهم أنهم أصحابه وأنهم أولى به ، ويعنيهم انهم لو تلبثوا عنه شيئا أفلت من أيديهم الى أيدي العباسيين .

وفي ظل هذه العجلة الملحة خرج زيد وخرج يحيى ، لا يجد زيد كما لم يجد يحيى فسحة من الوقت ليدبرا لأمرهما ، كما أخذ العباسيون يدبرون له ، مغرورين بمن التف حولهما من قلة قليلة ، مخدوعين عما يملك خصمهما من كثرة كثيرة وعتاد كبير ، من أجل ذلك أخفق زيد كما أخفق ابنه يحيى ، ولكنهما على كل حال قد أضافا بمقتليهما سببين جديدين في أيدي العباسيين ينتفعون بهما ويفيدون منهما ، ثم هما قد شغلا بهما الأمويين من تعقب العباسيين ، وهكذا أبى هذا البيت الا أن يحمل عبء التضحية كله ويترك العباسيين ينالون عنه الغنم كله .

٨

وعلى العكس مما كان العلويون كان العباسيون ، فلقد رأى محمد بن على أن الأمر تعوزه الحيطة ويعوزه الحذر ، ولم ينس محمد أنه أخذ الحق من آله ، وما كانت النفوس قد تهيأت لقبول هذا البيت الجديد على الدعوة . فزاده ذلك حيطة وزاده حذرا ، ولم ينس محمد أن المفاجأة خسران ، فانضافت الى حيطته حيطة وانضم الى حذره حذر .

من أجل هذا وذاك بدأ محمد دعوته لآل البيت لا يسمى أحدا حتى لا يتفرق الناس عليه ، ومن أجل ذلك حاط محمد دعوته بالاسرار لا بالاعلان ليأمن شر الامويين عليها .

ولقد قصد محمد أول ما قصد بدعوته أهل الكوفة ، يرى الكوفة مهدا للشيعة ويرى أهلها أسرع الى التشيع ، نحس ذلك في كلمته الى دعاته حين قال لهم :

... أما الكوفة وسوادها فشيعة على ، وأما البصرة فعثمانية تدين بالكف ، وما الجزيرة فحرورية ـ يريد الخـــوارج الذين خرجوا على على فيها فنسبوا اليها ـ وأما أهل الشـــام فلا يعرفون غير طاعة معاوية وطاعة بنى أمية ، وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما ابو بكر وعمر . ولكن عليكم بخراســان فان هنــاك العــدد الكثير والجـلد الظــاهر .

لا لهذا وحده اختار محمد بن على الكوفة ، ولكنه اختارها أيضا لسبب آخر لايقل عن هذا السبب الاول خطرا ، فلقد كانت الكوفة تبغض الأمويين لقسوتهم عليهم واستبدادهم بهم . فلقد كان الأمويون يعرفون الكوفيين أنصارا للعلويين وكانوا معهم على وجل، من اجل ذلك قسوا عليهم واستبد ولاتهم بهم .

فلهذا وذاك قصد محمد بن على بدعوته الكوفة لايعدل عنها الى غيرها ، وخرج دعاته من الحميمة الى خراســـان سرا يظهرون غير ما خرجوا اليه ، منهم من خرج خروج التجــار ، ومنهم من خرج خروج الحجاج يبغى مكة .

وما كانت مثل هذه الدعوة بالأمر الهين ، لذلك اختير لهــا رجال لهم دهاء ولهم حيلة . ولكن شيئا آخر انتفعت به الدعوة غير هذا هو أنها بدأت فى عهد عمر بن العزيز ، وكان عمر عادلا لا يرى العنف بالناس ، متسامحا لا يجيز أن يستمر الأمويون على لعن على فى خطبهم من فوق المنابر فأفسح عدله وتســامحه للدعاة أن يقولوا شبه آمنين ، وأفسح عدله وتسامحه للناس أن يسمعوا مطمئنين .

وما ادركت المنية محمد بن على فى السنة الخامسة والعشرين بعد المائة الا بعد أن قطعت الدعوة أشواطا بعيدة ، فحمل ابنـــه ابراهيم من بعده العبء صادقا ، يعينه على أمره كثرة ممن انضموا اليه ، ويعينه على أمره تفرق كلمة الأمويين وانحلال قواهم .

وحين أوشكت السنة الثانية والثلاثون بعد المائة أن تنتهى كان ملك الأمويين هو الآخر يوشك أن ينتهى ، واذا العلم الأسود وهو شعار العباسيين يرفرف على ربوع دمشـــق ، وتدول دولة

لتحل مكانها دولة . وكانت تلك الدولة الدائلة هى دولة الأمويين، وكانت هذه الدولة الجديدة هى دولة العباسيين .

كان ذلك بعد موت أبى هاشم بما يقرب من خمسة وثلاثين عاما ، مرت تلك الاعوام كلها للتمهيد للدعوة والتمكين لها . ولكنها مرت أيضا توهن من سلطان الأمويين وتهز من كيانهم . فلقد اختلفوا على أنفسهم مع هذه الأعوام التي اتحدت فيها كلمة الدعوة وانتظمت ، وكانت الأعوام تعطى لفريق وتمنع عن فريق ، ولو أن الأعوام مضت تعطي الفريقين معا لطال الامد على ظهور الدعوة ، ولجر طول الأمد الى اخفاقها ، فالدعوات أقتل الأشياء لها أن يطول أمد انطوائها . وما انطوت الدعوة العباسية هذه الفترة كلها منذ مات أبو هاشم سنة ٩٨ هـ الى حين كتب لها النصر الحاسم سنة ١٣٢ هـ . لكنها كانت مع مرور الأعوام تخرج من طور الى طور ، ومن سر الى ما يقرب من جهر ، ومما يقرب من جهر الى جهر ، فكانت هذه الأطوار المختلفة سببا هون على الداعين طول الامد ، وهون على الناس طول الانتظار .

وما ذاق حلاوة النصر محمد بن على ولا ذاقه ابنه ابراهيم من بعده ، ولكن فاز بعقبى هذا الكفاح الطويل ابن آخر لمحمد بن على هو أبو العباس السفاح ، وكان مولده سنة ١٠٤ من الهجرة ، وكان يراه أبوه صاحب الأمر ، بهذا أوهم نفسه وأوهم الشيعة من حوله، أوهم نفسه ليعود نفسه الصبر وهو يأمل ، وأوهم الناس ليحملهم معه على الصبر دون أن يملوا ، اذ كان على الناس أن يصبروا للدعوة ومرارتها الى أن يشب الوليد ، والى أن يبلغ مبلغ الرجال أعوام أراد محمد أن يقطعها على الناس مملوءة أملا ومملوءة رجاء ، فيكسبهم على الجهاد الطويل الشاق . وما نظن محمدا كان يؤمن بما قال للناس ، ولا كان يعلم الغيب ، ولكنه كان ذكيا وكان لبقا وكان جد خبير بتحريك النفوس وكسب القلوب وادارة دفة الامور .

٩

وبلى أبو العباس الخلافة الاولى لتلك الدولة الجديدة ، يليها وفى نفسه ما فيها من ترات كثيرة خلفها الأمويون حين استأثروا بالملك ، وحين كان الملك فى أيديهم ، لا يمحوها من صدره أن الملك صار اليه • وبالكأس التى سقى بها الهاشميون سقى أبو العباس الأمويين فأسرف فى القتل ، وسفح دماء كثيرة ، فسموه السفاح لذلك •

أراد أبو العباس السفاح أن يؤمن لنفسه فتجاوز الحد فى ذلك التأمين ، ولقد فعل الأمويون شيئا كان من ورائه من يتلقفه ليفيده منه كى يزحزحهم عن مكانهم ويسترد ما سلبوه • ولكن الأمويين بعد هذه الدولة وبعد هذه النكبة التى أودت بهذه الدولة، ما كان لهم حق يجتمعون عليه مثل ذلك الحق الذى اجتمع عليه الهاشميون ، فلقد دخلوا الى الحكم عن طريق اصطنعوها ، وواتتهم الظروف كما مر بك . فما أن دخلوا الى الحكم حتى شفوا أنفسهم شيئا ، وكانوا على أن يصانعوا الهاشميين لينالوا مع الحكم خضوع أصحابه لهم ليشفوا أنفسهم شفاء ثانيا بهذا الخضوع ، وحين عز عليهم الهاشميون واستعصوا قتلوهم ليسلم لهم أمرهم ، ورأوا نار الهاشميين كلما أخمدوها اتقدت فهلعوا ، وخافوا على ملكهم فأسرفوا فى العذاب ومالوا الى الغدر .

فللخوف من الهاشميين نال الأمويون من الهاشميين ، وللانتقام من الأمويين نال الهاشميون من الأمويين ، ولرد العدوان عن النفس قتل الأمويون الهاشميين ، ولشفاء النفس قتل الهاشميون الأمويين ؟ ثم زاد الهاشميون فقتلوا الأمويين لالشىء من هذا ولالشىء من ذاك •

وقد حسب أبو العباس أنه أرضى العلويين حين أرضى نفسه بقتل خصومهم وخصومه ، رضى يمحو ما فى نفس العلويين من تطلع الى الحكم • ولكنه أنسى أن الحكم شهوة من شهوات النفس مثل الجوع والظمأ لا يسدها الا أن تطعمه وتسقيه ، فكما لا يغنى

الجائع والظامىء عن الطعام والماء الا بما يملأ البطن فيشبع ويروى اللسان فيندى ، كذلك لا يغنى طالب الحكم الا أن يحكم ليشبع . ولقد حاول الامويون مثل هذه مع الهاشميين فما أقنعوهم ولا صرفوهم عن حقهم . بذلوا لهم المال فوجدوا المال لا يشبع تلك الشهوة ، وأفسحوا لهم في الاكرام فوجدوا الاكرام وان غلا لا يشبع تلك الشهوة ، واستأنسوهم فأمعنوا في الايناس ، فوجدوا الايناس وان زاد لا يشبع تلك الشهوة . وحين فقدوا أسباب السلم أخذوا في حربهم وقتلهم وتشريدهم وتعذيبهم . فوجدوا الارهاب كالترغيب لا يطفىء تلك الشهوة .

ولكن الحكم كما هو عزيز على من يطمع فيه عزيز على من هو فيه . من أجل ذلك حرص عليه الأمويون حين بات في أيديهم حرص الهاشميين عليه حين فاتهم وخرج من أيديهم .

وكما وقف الهاشميون جميعا من الأمويين وقف العلويون وحدهم من العباسيين ، وكما تطلع الهاشميون جميعا الى الحكم ينتزعونه من أيدي الأمويين ، تطلع العلويون وحدهم الى الحكم ينتزعونه من أيدي العباسيين .

وهكذا كتب على العلويين من بين الهاشميين أن يذوقوا العذاب مرة ثانية وأن تمتد بهم المحنة الى أمد جديد . يتلقف منهم الحكم في المرة الاولى الأمويون بأسباب هينة ، ويتلقف منهم الحكم في المرة الثانية العباسيون بأسباب هينة ، وكما لم يقصروا في الاولى لم يقصروا في الثانية ، لكنهم في الاولى كانوا كثرة ، إذ كانوا هاشميين ، وهم في هذه قلة اذ كانوا علويين ، وكانوا في الأولى على أول الطريق ، فكان شغل الناس بهم كبيرا ، وهم في الثانية قد قطعوا من الطريق أميالا فشقوا على انفسهم وشقوا على الناس ، ولم يبت شغل الناس بهم كبيرا .

ولكنهم على هذا كله لم يملوا ولم يمل الناس معهم ، وأخذوا يدبرون لزحزحة بني عمهم واسترداد حقهم منهم .

ولكن العباسيين ما آمنوا بأن الذى صار في أيديهم ليس حقا لهم ، ومن قبلهم ما آمن الأمويون بأن الذى صار في أيديهم ليس حقا لهم - وكما حرص الأمويون على هذا الذى عدوه حقا حرص

العباسيون على هذا الذي عدوه حقنا ، وكما عادى الأمويون الهاشميين لخروجهم عليهم عادى العباسيون العلويين لخروجهم عليهم . وكانت الخصومة هنا كما كانت هناك لا ترحم ، كما لم ترحم سابقتها ، وانسيت القرابات هنا كما أنسيت هناك ، لا يذكر الا الحكم فهو أقرب الى النفس من كل قريب واعز على النفس من كل عزيز .

فلقد أخذ محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على يدعو لنفسه سرا ، فالتف حوله ناس ، حتى اذا ما كثر أنصاره ظهر يريد الأمر لنفسه وتلقب بأمير المؤمنين ، ولقد دان له أهل مكة ، ودان له أهل المدينة .

وما انتفع النفس الزكية بخروجه ، ولا انتفع بامارته ، فسرعان ما وقعت عليه يد عيسى بن موسى بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس وقتله .

فتلقف الدعوة من بعد النفس الزكية أخوه ابراهيم . وكما لم يهن ابراهيم لم يهب الناس من حوله . فلقد كانت عقيدة كما قلت لك ، يؤمن بها أهلها الايمان كله ، يؤمنون بها دينا ودنيا : دينا يقيم الدنيا ودنيا تمهد السبيل لقيام الدين . ويؤمن بها أصحاب أهلها الايمان كله ، يؤمنون بها هم الآخرون دينا ودنيا : دينا يرونه قد تعطل حق من حقوقه ، وقد يغلو بعضهم ويقول : ركن من أركانه ، ودنيا ، لأنهم كانوا طامعين يحبون الحياة بمتاعها ولا يحبونها مجردة عن متاعها .

من أجل ذلك هان على هؤلاء وهؤلاء الموت . هان على أهل الدعوة لأنهم رأوها رسالة وهم حاملوها ، وهان على أصحابهم لأنهم عدو أنفسهم حفظة لهذه الرسالة ، حريصين عليها حرصهم على نعيم الدارين .

وسرعان ما انضم الى ابراهيم كثيرون من ذوى الرأى والجاه فى البصرة . وكما أعان الامام مالك أخاه محمدا من قبل على المنصور فأفتى بنقض البيعة التى انعقدت للمنصور ـ لأنها أخذت اغتصابا وأكره الناس عليها ، ففتح القلوب للشك فى أمره ، وحرك الألسنة بالنيل منه ، وعبد السبيل بذلك لمحمد كى ينادى بنفسه

أميرا للمؤمنين ، وأتاح لنفر من الناس أن يلتفوا به عن حجة ــ كما أعان الامام مالك محمدا هذا العون أعان الامام أبو حنيفة ابراهيم أخاه ، ولكن الإمام مالكا ملك أن يفتي وتذيع عنه فتواه فيفيد منها الناس ، ويفيد منها محمد ، ولكن الامام أبا حنيفة لم يملك غير أن يعين سرا ويؤيد سرا . ولكن هذا الذى كان يعد سرا كان أقرب الى الجهر ، فما كان أحرص الداعين على تأييد امام كأبي حنيفـــة ، لا يقول الا قالوا عنه ، ولا يشير الا اشاروا عنه ، وكأنه هو القائل وهو المشير لا يعدون هذا التكتم الذى بغاه غير الا يسمعه النـاس متكلما ، وغير ألا يراه الناس مشيرا .

لهذا كان جهرا ما أراده الامام أبو حنيفة سرا . لم يسمع الناس أبا حنيفة يقول ولا رأوه يشير . ولكنهم سمعوا النـــاس يروون عنه ، ورأوا الناس يشيرون باشارته . وما كذب أبو حنيفة من رووا عنه ، ولا من اشاروا ، فلم يكذب الناس الراوين عنـه ولا المشيرين بما أشار .

وهكذا أفاد أبو حنيفة ابراهيم بعونه ، وهيـــأ أهل واسط والأهواز وفارس لأن يستجيبوا له ، والتف حول ابراهيم مؤيدون ومستجيبون وناصرون .

غير أن ما أصاب محمدا أصاب بابراهيم ، لم يختلف القـــاتل ولم يختلف القتلة ، فلقد كان عيسى بن موسى هو الذى قتل محمدا ، وكان عيسى بن موسى أيضا هو الذى قتل ابراهيم أخا محمـــد ، قتل ابراهيم وقتل محمدا فى عام واحد سنة ١٤٥ هـ ، وقتـــل ابراهيم كما قتل محمدا قتلة نكراء .

وتهدأ الدعوة قليلا لتظهر مرة أخرى على يد الحسين بن على ابن الحسن الحسن بن الحسن بن على بالمدينة ســنة ١٦٩ هـ . وكان الهادى عندها خليفة للعباسيين ، فيرسل الجيوش لحـــرب الحسين ، وتلقى جيوش الهادى الحسين قريبا من مكة ، وكـــان الحسين قد خرج من المدينة الى مكة يدعو لنفسه ويهيىء لأمره . وكان قد التف به ناس كثيرون ، منهم جملة كبيرة من أهله .

وكأنى بتلك السنين التى جاوزت العشرين ــ أي منـــذ أن قتل ابراهيم سنة ١٤٥ الى أن ظهر الحسين سنة ١٦٩ هـ ــ قد

مكنت للحسين فزادت من ناصريه ، وأكثرت من جنده ، فاذا هو يلقى جيش الهادى غير ضعيف ولا قليل عـــدده ، واذا الجيشان يقتتلان أشد قتال وأمره ، واذا المعركة تشتد لتشتد على الحسين ومن معه ، واذا من معه كمن كانوا مع غيره بالأمس ينكصون حين يلتقى الجمعان ، واذا الحسين فى أهله بعد أن فر عنه اصحابه ، واذا كربلاء التى قتل فيها الحسين الأكبر تتمثل فى فخ – مكان يبعد عن مكة بستة أميال – الذى قتل فيه الحسين الأصغر ، واذا قتلى فخ يبلغون عدد قتلى كربلاء، واذا محنة فخ تحكى محنة كربلاء، واذا الناس الذين هالتهم كربلاء تهولهم فخ ، واذا الشيعة مع فخ يكسبون سببا له قوة ذلك السبب الذى كسبوه فى كربلاء • اثارة للنفوس ، وهزا للقلوب ، واشعالا للأفئدة •

وما كان أحوج الشيعة الى كربلاء أخرى يقيمون عليها ويقيمون الناس معهم عليها • ولقد أعطت كربلاء الأولى فائدتها ، ولكن تلك الفائدة وقعت للعباسيين ولم تقع للعلويين ، فكان لابد للعلويين من كربلاء ثانية ليقيموا بها الدنيا معهم كما أقاموها من قبل ، على أن تكون لهم هم فائدتها •

وكأنى بالعلويين ، رموا بأنفسهم فى أتون الثورات لا احجام ولا خوف ولا انثناء على الرغم من تلك النذر التى كانت تسبق الاقدام ، يريدون بذلك أن يحملوا خصوم اليوم –أعنى العباسيين– كما حملوا خصوم الأمس – أعنى الأمويين – تبعات يفيد منها العلويون ويخسر خصومهم •

وكأنى بالحسين بن على بن الحسن أرادها على هـــذا الوجه الكئيب المفزع • أراد أن يجعل التشابه فى الاسم يتبعه تشـــابه فى الفعل ، وأراد أن يجعل التشابه فى الفعل يتبعه تشـــابه فى الأمر •

وقد تحقق للحسين بن على بن الحسن ما أراد ، فاذا فـــخ بما وقع فيها قد أنست الناس كربلاء ، واذا الشعراء يقولون عن فخ كما قال سابقوهم عن كربلاء ، واذا شعر فـــخ ينسخ شعر كربلاء ، واذا فـــخ تذكر واذا كربلاء تنسى •

١٠

وكما فات الامويين نفر من العلويين يوم كربلاء ، عاشوا ليحملوا العبء من بعد آبائهم ، فات العباسيين يوم فخ نفر من العلويين ، فروا ليحملوا العبء عن اخوانهم الذين سبقوهم .

فلقد نجا يحيى بن عبد الله ونجا معه أخوه ادريس ، ليحملا العبء وليكونا شجى فى حلوق العباسيين .

ولقد كانت فخ كما كانت كربلاء شيئا مذكورا ، من أجل ذلك كان يحيى بن عبد الله شيئا مذكورا ، وكان ادريس من بعده شيئا أشد ذكرا .

ففى أيام الرشيد (١٧٠ هـ - ١٩٣ هـ) ثار يحيى وثارت معه الديلم واذا اليمنيون بعدها فى اثر الديلميين ينضمون الى يحيى ، واذا يحيى بالديلم وباليمنيين قوة يخشى بأسها ويخاف ضرها ، واذا الرشيد فى قوته وفى بأسه يخشى ويخاف ، واذ الرشيد يجمع للفضل بن يحيى البرمكى جيشا قوامه خمسون الفا ، يريد أن يدفع به لحرب يحيى بن عبد الله .

وكان الفضل بن يحيى البرمكى يعرف الحرب ويعرف شيئا آخر الى جانب الحرب أنفع له ولجنده ، وأجدى على الخليفة ، كان يعرف الحيلة ويعرف أنه ان أفلح فيها وفر عليه وعلى الناس عناء ثقيلا ، قد يمعن فى الثقل فيودى به هو ويودى بالناس ، كما يوفر على الخليفة ما هو فوق هذا كله ، فقد يمعن هذا العناء فى الثقل فيخرج بالخليفة عن خلافته ، ويقلب الأمور رأسا على عقب .

كان الفضل يعرف الحيلة كما يعرف الحرب ، وكان بالحيلة أعرف ، من أجل ذلك خرج على رأس جيشه هذا الكبير يمهد به للحيلة لا يمهد به للحرب ، خرج يستتر به حيلته حتى لا يقال عنه انه يحتال عن ضعف ، وصاحب الحيلة ان لم يبد فوق حيلته لم يبلغ بحيلته مايريد ، وان بدا دون حيلته سقط وسقطت حيلته ، وعاد وقد خسر فوق مايريد .

وهكذا لقى الفضل يحيى قبل أن يلقى جيش الفضل جيش يحيى ، وكان أسلوب الفضـــل مع يحيى هو ذلك الاسلوب الذى انتهجه الناس من قبل ، ولا يزال الناس ينتهجونه الى اليوم حين يريدون أن يحتالوا ، وحين يريدون أن يصرفوا غيرهم عن شىء أو يضموهم الى شىء ، أسلوب ليس فيه غير بسط الأمانى فســاحا ، وبسط الترغيب واسعا ، فان لم يسعف هذا ولا ذاك جاء الارهاب مكان الأمانى ، وجاء التخويف مكان الترغيب ، يساق هذا ويساق ذاك ، سوقا لايثير النفس فتغضب ولا يغضب القلب فيأبى ، وعلى هذا كانت الحيلة شيئا سهلا حين نسمعها ، ولكنها شىء صعب حين نعملها ، وهى سلاح ان أحسنت استخدامه كسبت به فوق ماتكسب بالحرب ، وان أسأت استعماله خسرت به فوق ماتخسر فى الحرب .

ولقد كان الفضل بن يحيى رجل حيلة ، كما ذكرت لـك ، وحسبه أنه غرر برجل فى قدر يحيى فصرفه عما خرج له ، صرفه بتلك الوعود وتلك الأمانى التى صرف بها كثير غيره من قبل .

قد نقول : ان يحيى حين فر من فخ فر عنها بنفس فيهـــا الجزع وفيها الهلع ، من أجل ذلك لم تقع يده على خيـط الأمانى حتى استمسك به .

ولكنا نقول : ان يحيى لو كان الجزع الهلع لاستكان بعد أن فر ولقبع بعد أن نجا ، ولكنه حين ثار دل على أن فراره كان ليعود ، وأن نجاءه حين نجا كان لينتقم .

وقد نقول : ان يحيى أحس ضعفه عن أن ينال من خصمه ، بعد ما رأى من تجمع خصمه له ، فى ذلك العدد الكبير والعتـــاد العظيـــم .

ولكنا نقول : ان الشيعة ما نظروا الى تكافؤ قواهم مع قوى خصمهم ، ولا ألقوا بالا الى أنهم قليل وعدوهم كثير ، ولو أنهـــم نظروا الى تلك وألقوا بالا الى هذه ما تحركوا ولا ثاروا .

ولقد كان جيش يحيى جيشا كبيرا قويا ، اجتمع به ليخرج ، وما جمعه هو لنزهة أو رحلة .

ولكن الفضل كان داهية وكان يحيى عاقلا ، ولـــكن دهاء الفضل غلب عقل يحيى ، ولو أن بين أيدينا ما قال الفضل وما قال يحيى لملكنا الاسباب حين نحكم ، ولكن هذا لن يعفينا من أن نذهب

بعيدا فنقول : نكاد نتهم الفضـل بأنه ادعى ليحيى شيئا ، ونكاد نتهم الفضل بأنه أقسم أو حاول ان يقسم للفضل على ما ادعى ، من أجل ذلك صدقه يحيى واستجاب له .

ولكنا نذهب بعيدا في اتهام يحيى فنقول : وهل يفعل المحتال المتداهي غير ما فعل الفضل ، ان صح أن الفضل فعل ما قذفنـاه بـه ؟ ثم نقول : كيف غاب هذا عن يحيى ؟ .

ولكنا نعود فنقول : لقد كان الأمر أجل من أن يرده يحيى ، ولقد كانت الحيلة أدق من أن ينكث نسجيا يحيى ، فلقد شارك فيها الرشيد فكتب على نفسه أمانا ليحيى ، ثم شارك فيهـا غير الرشيد من القضاة والفقهاء ، ثم شارك فيها نفر من كبـار بني هاشم ، أمضى الرشيد وشهد عليه القضاة والفقهاء وكبـار بني هاشـم .

ولقد أجاب الرشـيد يحيى الى ما طلب ، وماذا يعني يحيى غير هذا ، وما أغناه عن الحرب ان نال بالسلم والا كان أخرق .

وقبل أن يقبل يحيى على الرشيد ، وقبل أن يجنح يحيى الى السلم ، جاءه كتاب الرشيد بهذا الأمان وبهذه الاجابة وبهـذه التزكية من القضاة والفقهاء ، وكبار بني هاشم .

وتحرك يحيى للقاء الرشيـد ، وما نشك في أنه تحرك اليه حذرا يحتاط . وحين لقي يحيى الرشيد زال عنه حذره وزالت عنه حيطته . فلقد لقيه الرشيد مرحبا به مبجلا له مكرما اياه . وما كان الرشيد رجلا من الرجال ، ولكنه كان رجـلا فوق الرجال . هكذا رآه يحيى ولهذا اطرح يحيى شكه كله ، وحذره كله ، وحيطته كلها ، وعاد الى اطمئنانه كله ، وحين يعود المرء الى اطمئنانه كـله يفقد البصر ويفقد الوعي ويفقد التدبير .

ولهذا أنسي يحيى أن الفقهاء رعية الرشيد . قد أنسوا هم الآخرون صلتهم بأوامر الفقه ونواهيـه وذكـروا صلتهم بأوامر الرشيد ونواهيه ، يؤثرون أن يجعلوا فقههم يستجيب للرشـيد ، ولا يجعلون الرشيد يستجيب لفقهم ، وان كبار الهاشميين حياتهم موصولة بغضب الرشيد ورضاه ، ان أرضوه بقوا وان أغضبوه لم يبقوا ، وما أحرصهم على أن يبقوا ، وان الرشـيد يملى عن

طبيعتين : طبيعته ملكا وطبيعته انســانا ، وهو ما دام فى الملك تغلب طبيعته الأولى طبيعته الثانية ، فلا يصــدر الا عن أثرة ، والاثرة تجر الملوك الى نسيان كثير من الحق ، ونسيان كثير من الذمم والعهود .

لقد أنسى يحيى هذا كله حين اطمأن ، فاذا هو يلقى الرشيد دون أن يحتاط لشيء ، واذا الرشيد بعد أن يضع يده عليه يقتله ، لاندرى على أية صورة قتله ، ولكنا نعلم علم اليقين أنه حرمه الحياة وحرم هذا الميدان الشيعى منه ، وظن الرشيد أنه أراح نفسه من يحيى ومن الشيعة .

١١

وكانت تلك المحن المتتالية كفيلة بأن تهيىء العلويين لتفكير جديد، ولقد كاد الشرق أن يسأم هذا النزاع ويمله ، ولقد أحاطه بتأييده كله حين كان نزاعا له صورة واضــحة تكاد تكون عقيدة ، ثم أخذ يتراخى فى حياطته بتأييده حين رآه نزاعا لا صورة له واضحة تبلغ أن تكون عقيدة ، فلقد آل الحق للعباسيين وهم هاشميون ، ومن قبل اغتصب الأمويون هذا الحق وهم غير هاشميين ، من أجل ذلك هــاج الشرق يناصر الهاشميين منــاصرة قوية ، حين كان الأمر فى يد الأمويين ، ثم مناصرة فاترة حين كان الأمر فى يد العباسيين .

ولقد أحس العلويون الآمر بينهم وبين العباسيين على صورة غير التى أحسوها حين كان الأمر بينهم وبين الأمويين : فلقد كانوا فى الثانية يحاربون خصوما ، وهم فى الأولى يحاربون أقرباء ، وكانوا فى الثانية يملون عن عداء قديم له أصله ، وهم فى الأولى يستملون عن خصومة ناشئة لها عذرها ، ولقد كان الناس معهم على نفس الحال، يحسونها حارة فى الثانية فاترة فى الأولى ، وما على الناس اذا اختلف الأقرباء أن يختلفوا هم على أنفسهم .

أحس ذلك ادريس من بعد يحيى ، فنظر يفتش عن ميدان جديد يضم قلوبا جديدة . ميدان لم يشهد هذه المعارك ، ولكن كان على علم بها ، ميدان لم يشغل بهذه المعركة يده الى رأسه ، ولكنه شغل بها

رأسه دون يده . واليد حين تكلف ما فوق طاقتها تكل ، واذا كلت جرت الرأس الى أن يتدبر ليخفف عنها ويريحها ، ولقد كلت الأيدى فى الشرق فجرت الرءوس الى هـذا التدبر . من أجل ذلك فتر الناس واستراحوا . وكان غير الشام وغير العراق ذلك الميـدان الذى شغل رأسا ولم يشغل يدا ، والرأس اذا شغل ولم تشغل معه اليد ، كان أرخى له وأودع ، فيبيت ويصحو على ما شغل به متعلقا به يود لو شاركه فيه ، حين يقتنع به .

وما نظن هذا الأمر الذى جعله الناس فى ذاك الميدان الأول عقيدة الا سوف يجعله النـاس فى هذا الميدان الجديد عقيدة ، وما نظن الداعين لهذا الحق سوف يلقاهم الناس فى هذا الميـدان الجديد الا بالترحيب والقبول .

لقد فكر فى هذا وذاك ادريس ، فكر فى الميدانين معا ، فاذا هو يعدل عن الميدان الأول الى الميدان الثانى ، يحب أن يلقى الناس لم تشغل أيديهم رءوسهم فيفتحوا له قلوبهم . بعد أن أغلقها دونه رجال الميدان الأول الذى عوقت أيديهم رءوسهم .

الى هذا الميدان الجديد رنا ادريس ، فاذا هو يقصد المغرب ، واذا هو يحل شمال افريقيا يدعو ، واذا الناس حوله يسـتجيبون مؤيدين .

وكما رجا ادريس هذا الميـدان الجديد خاف الرشـيد من هذا الميدان الجديد ، خافه الرشيد بقدر ما رجاه ادريس ، ورآه الرشيد كما رآه ادريس ميدانا بكرا قد يجر عليه مالا قبل له به .

من أجل ذلك فكر الرشيد ينعم الفكرة ، وما كان الرشيد فى حاجة الى أن يجهد فكره ، فكما خلص من يحيى يستطيع أن يخلص من ادريس ، ولكن يحيى كان منه قريبا ، وادريس كان بعيدا . ولعل الفرق بين الحالين يسر هذا وعسر ذاك ، ولعل هذا هو ما أجهد فكر الرشيد .

ولكن الرشيد لن يعدم قاتلا يأجره فى الثانية . كما لم يعدم فى الأولى ، وما على الرشيد الا أن يضاعف الأجر ويزيد .

لم يبد هذا للرشيد جليا أول الأمر ، لأن الملوك حين يحزبهم

شيء — وان هان — يضيقون ، وحين يضيقون تلتوى عليهم الأمور ، وحين تلتوى عليهم الأمور يجدون صعبا ما هو سهل •

وأخص الملوك دون الناس لأنهم يخالون حين يملكون أنهم قد ملكوا الأمور كلها من حولهم ، فاذا استعصى عليهم منها شيء صدموا في هذا الخيال ، فاستحال ظلاما في أعينهم ما كان نورا ، واستحال ضيقا في انفسهم ما كان فرجا ، لا يعرفون حالا وسطا ، فاذا هم ثائرون الثورة كلها ، واذا هم لا يملكون عقلا ولا رأيا ولا فطنة ، في ظل هذه الثورة كلها •

فلا عجب أن يضيق الرشيد أول الأمر حين فكر في ادريس وفي الخلاص من ادريس ، ولا عجب ان ارتاح الرشيد آخر الأمر حين خلص من ادريس كما خلص من يحيى ، فلقد وقع الرشيد على من يقتل ادريس ، ولقد أفلح هذا الرجل حين اتصل بادريس ، ثم أفلح حين جعل ادريس يثق به ، وأفلح حين جعل ادريس يستخلصه لنفسه ، ثم أفلح أخيرا — ان صح أن هذا افلاح — حين دس السم لهذا الرجل الذى وثق به •

وهكذا دخل هذا الرجل على ادريس كما دخل الرشيد على يحيى، ولكن ادريس كان له شيء من العذر على حين لم يكن ليحيى عذر • فمن اليسير على المرء أن يخدع بصديق كما خدع ادريس • ومن اليسير على المرء أن يثق بصديق كما وثق ادريس ، ولكن من العسير أن يفعل الناس كلهم ما فعل هذا الرجل بادريس ، أو أن يخسر الناس خلقهم كما خسر هذا الرجل خلقه •

ولكن هذا الرجل حين خسر خلقه كان له فيمن هم فوقه أسوة ، وان اختلفت الصورة بينه وبينهم ، ولكنها على الرغم من هذا الاختلاف صورة واحدة ، فليس من فرق بين أن يأمر الكبير بالغدر ليأتيه غيره ، وبين أن يفكر هو فيه ويأتيه ، فهو على الحالين آثم أشرك في اثمه غيره في الأولى ، وانفرد هو بالاثم كله في الثانية ، وهو في الأول أعظم جرما منه في الثانية •

وعلى أية حال فقد قتل الرشيد ادريس كما قتل يحيى ، قتل يحيى فخلا له الجو حيث هو في الشرق في بغداد وما حول بغداد ، وقتل ادريس يريد أن يخلو له الجو في شمالى افريقيا ، فاذا هو يمهد للعلويين بهذا القتل في هذا الاقليم الجديد لانشاء خلافة جديدة •

وهذا الميدان الجديد ، كما قلت لك ، ميدان ضم فئات من الناس لم تثقل عليها شئون هذه الدعوة منذ أن نشأت ، ولم يشاركوا فيها برؤوسهم وأيديهم ، وانما شاركوا فيها برءوسهم دون أيديهم ، فوفروا تلك الأيدى لهذا العراك الجديد ، الذى استقبلوا به الرشيد لينشئوا حول تلك الدعوة خلافة ، وليلتفوا حول هذه الخلافة يمكنون لها .

فلقد مات أدريس عن غير ولد ، ولكنه مات عن زوجة حامل ما لبثت بعد موته بقليل أن وضعت ولدا أنس به اهل المغرب انسا يعوضهم حزنهم على أبيه ، لذلك سموه ادريس باسم أبيه ، وبايعوا له بالخلافة قبل أن يشب ، واليه نسبت دولة الادارسة بالمغرب .

١٢

وهكذا رأى ادريس فصدق وأفلح ، حين اختار ذلك الميدان الجديد . ولعلنا نضيف جديدا اذا قلنا : ان بعد هذا الميدان عن مقر الخليفة كان له أثر فى نجاح الدعوة ، وكان له أثر فى جذب ادريس اليه ، وايثاره له دون غيره .

وما ابعدت الأرض الرشيد عن أن يكون موصولا بالدعوة ، لا يريد لها الكمال ولا يريد لها الخروج الى الحياة على صورة دولة اسلامية الى جانب دولته الاسلامية ، ولقد قتل ادريس حين أوشك أن يكون خليفة ، وأن يكون صاحب دولة ، ولكنا لا نراه يكرر المحاولة مع ابنه الوليد : ادريس بن ادريس ، بل نراه يعدل عما حاول أولا الى شىء آخر يحاوله يختلف عن الأول . فقد حاول فى الأولى أن يواجه فردا بفرد ، لأن الأمر لم يكن قد استقام استقامته الأخيرة ، بل كان لا يزال كما رأى الرشيد داعيا ومستجيبين ، فاذا ذهب الداعى انفض المستجيبون . من أجل ذلك عزم الرشيد على أن يذهب بالداعى على ذلك الأسلوب الغادر ، ليفض جمع المستجيبين بذلك الأسلوب الماكر .

هكذا قدر الرشيد ، فاذا الأمر غير ما قدر ، فلقد ذهب الداعى وبقى المستجيبون ، بل لقد تحول المستجيبون الى دعاة ·

واذا الرشيد يرى الأمر غير ما رآه أولا ، لا يراه فردا نفرد ، بل يراه جماعة لجماعة ، من أجل ذلك أقطع الرشيد ابراهيم بن الأغلب تونس ، ليجعل منه ومن دولته التى فى يديه سدا منيعا فى وجه الأدارسة ان هموا أن يغيروا أوهموا أن يخرجوا من أرضهم الى أرضه أو هموا بأن يطووا سلطانه الى سلطانهم ·

فأنت ترى أن الرشيد بدأ ينظر الى الأمر نظرة أخرى ، لم ينظر اليه كما كان ينظر اليه من قبل ، ولا كما كان ينظر اليه سلفه من قبل ، حين كانوا جميعا ينظرون الى هؤلاء المطالبين بحقهم نظرتهم الى العصاة ، ونظرتهم الى الخارجين ، ونظرتهم الى المتمردين ·

وظاهر أن نجاح الأدارسة فى مكانهم هذا النائى عن مقر الخلافة شجع غيرهم أن يحذوا حذوهم من العلويين ·

فلقد فر محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق الى الرى ، ومنها الى دنياوند — جبل قرب الرى — ثم استقر بمكان هناك نسب اليه فكان اسمه محمد أباد · ومضى أبناء لمحمد الى خراسان ، ثم الى قندهار ، ثم الى السند داعين مبشرين ·

كما اتخذوا سلمية — من أعمال حماة بالشام — مركزا لنشر هذه الدعوة يبعثون الدعاة منها الى سائر البلاد ·

غير أن هذا التفرق كله لم يغن شيئا ، فاذا العلويون متبوعون ، واذا هم مضيق عليهم ، واذا هم آخر الأمر ملجئون الى حيث لجأ اخوانهم من قبل الأدارسة ، واذا هم قاصدون شمال افريقيا ·

وعند هذه كان سلطان العباسيين قد أخذ ينكمش ، وأخذ سلطان العلويين ينبسط ، أصبح العباسيون يضعفون وأصبح العلويون يقوون ، يأخذ الزمان من أولئك ويعطى هؤلاء ·

يهدد الزنج الدولة العباسية من طرف ، وتغير العصابات عليها من طرف · ولقد مهد هذا كله الى قيام دولة فى مكان بعيد عن مقر الخلافة من الشمال على الساحل الافريقى ، أعنى تونس : ذلك الاقليم الذى كان فى يد ابن الأغلب حين أقطعه اياه الرشيد ، ثم استقل ليستقبل خلافة علوية هى الخلافة الفاطمية ·

١٢

وهكذا كانت فخ بمآسيها أبلغ أثرا من كربلاء بمآسيها ، فلقد كانت كربلاء والعداوة فى أول سنيها ، تحمى لها النفوس وتشرئب الأعناق وتتطلع الأعين ، وكانت فخ والعداوة قد طال عليها الزمن فألفتها النفوس ، وانحنت لها الأعناق ، واسترخت لها الأعين ، فكان الخصم فى الأولى عنيفا ، يقظا مترقبا فى حماس ، وكان الخصم فى الثانية عنيفا يقظا مترقبا ولكن فى فتور ، من أجل ذلك وجدت الدعوة فرصتها مع الثانية ، ولم تجدها مع الأولى ، وما كانت كربلاء دون فخ ، وما كانت فخ تفوق كربلاء ، فلقد قتل فى كربلاء الحسين بن على أكثر الناس قربى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقتل فى الثانية الحسين رابع حفيد للحسن بن على ، وبينه وبين الرسول أمد .

وهكذا كان اختيار ذلك المكان من شمال افريقية ، حيث مدينة فاس ، أبلغ أثرا من سلمية فى الشام، ففى ذلك المهد الثانى — أعنى فاس — كتب للأدارسة أن يتجمعوا ، وكتب لهم أن يقيموا دولة ، وكتب لهذه الدولة أن تبقى نحـــوا من مائتى سنة ، أى منذ بويع لادريس بن ادريس (ســنة ١٧٧ هـ) الى أن آل أمر البــلاد الى الفاطميين (سنة ٣٧٥ هـ) ، وكتب لهذه الدولة أن تجر اليها الدعاة من الشرق ليحتموا بها ، ولينشروا الدعوة فى ظلها ، وما استطاع المهد الأول سلمية بالشام أن يؤمن الدعاة ولا أن يحفظ لهم دعوتهم ، فخرجوا عنه الى المغرب .

وهكذا كان هذا النصر الذى كسبه الأدارسة ، حين أقاموا لهم دولة بالمغرب ، بدء التمكين للعلويين ، وبدء دخول هؤلاء المكافحين الى الحكم ، وبدءا لاستقرار فئة مكافحة مجاهدة ركبت الصعب الأشق ، فلم تهن ولم تفتر ، وحملت على مالا يقوى على حمله بشر ، فصبرت ولم تفتر وضيقت عليها السبل فلم تيأس ولم تقصر ، دفعت ثمن هذا الاستقرار دما سال على البقاع ، كلما جف دم أسالت غيره ، لم تبخل ولم تقتر .

وكما حمل أبو مسلم الخراساني دعوة العباسيين ينشرها في ربوع الشرق ، حمل أبو عبد الله الشيعي دعوة العلويين ـ الفاطميين ـ ينشرها في المغرب ،وكما مهد أبو مسلم لأبي العباس السفاح يحكم باسم العباسيين ، مهد ابو عبد الله الشيعي للمهدي عبيد الله يحكم باسم الفاطميين .

وكان أبو عبد الله الشيعي الحسن بن أحمد بن محمد بن زكريا ، رجلا من أهل صنعاء ، وكان ول العهد به على رأس الاثنى عشرية ، التي كانت تغلو في اجلال علي بن أبي طالب ، يدين بهذا الرأي ، ويقوم بتعليمه للناس ، حتى عرف باسم المعلم ، وكان صوفيا يعرف الناس له زهده ، ويعرفون له تقشفه ، فجل في نفوسهم ، ثم جنح الى الاسماعيلية الداعين الى امامة اسماعيل بن جعفر الصادق والممهدين للدولة الفاطمية .

واتصل أبو عبد الله بالمهدي محمد أبي عبيد الله ، فأنس به المهدي حين رآه ذا كفاية وذا ذكاء ، والدعاة حين يقفون على من في مثل أبي عبد الله كفاية وذكاء لا يدعونه يفلت من أيديهم ، اذ ما أحوج الداعين الى كفاية تملي الصبر ، وذكاء يملي النفاذ ، هذا وأبو عبد الله لم يكلف شيئا غير ما يعتقد ، ولم يوجه الى غير الوجه الذي يحب .

وكانت الاسماعيلية قد جعلت من مدينة سلمية مركزا لها تنشر منه الدعوة ، وعن سلمية كان يخرج الدعاة الى جميع البلاد يبشرون ويدعون ، يحتال هؤلاء الدعاة ألوانا من الاحتيال ، تصرف عنهم العيون ، وتجعلهم بمنأى عن كيد العباسيين .

فكان لهم في كل قطر اسلامي نائب يلي أمر الدعوة ويهيىء لها ، وكان امامهم في اليمن ابن حوشب ، وكان شيخا من شيوخ الاسماعيلية ، له بأساليب الدعوة بصر ، وعلى يديه تخرج كثيرون .

وحين أنس المهدي بأبي عبد الله رأى أن يرسله الى اليمن أولا ليعيش في ظل ابن حوشب فترة يلقن عنه ويفيد . وألم أبو عبد الله بابن حوشب يلقن عنه ويفيد ، حتى اذا ما فكر الاسماعيليون في هذا الميدان الجديد ، ميدان المغرب ، بعد أن ضاقوا بسلمية ، وضاقت بهم سلمية ، وجدوا في أبي عبد الله رجلهم الذي يعتمد عليه في هذا

الميدان ، ووجدوه لهذه المهمة ذا كفاية وذا ذكاء . ووجد أبو عبد الله البربر ـ أهل تونس والمغرب ـ ذوى حمية ، على استعداد لأن يدفعوا بأنفسهم فى أتون الحرب ، لا يبالون وطيسها ، لم يلتوا عليه بما فى جبلتهم من خشونة واستعصاء ، فلقد كان أبو عبد الله أعلم الناس بما يساس به الناس فألان من عريكتهم ، ورقق من طباعهم ، واذا هم فى يده يحركهم كيف شاء فخلق فى نفوسهم عقيدة ، وخلق منهم بعد هذه العقيدة جيشا ، وخلق من هذا الجيش أنصارا يعيشون ويموتون على الطاعة ، واذا أبو عبد الله بحزمه وعزمه قد مهد البلاد لاستقبال الخليفة الفاطمى المهدى .

ويحكون أن أبا عبد الله حين انفصل عن اليمن ، تاركا ابن حوشب ، يحفظ فى رأسه عنه ما زوده به ، قصد الى مكة ، وفى مكة سأل عن حجاج كتامة سكان افريقية ، ولقى أبو عبد الله من كتامة نفرا فوجد عندهم تعلقا بآل البيت ، فدخل الى نفوسهم من هذا الباب الذى فتحوه له ، فاذا هو يتكلم ويفيد ، واذا هو على استيعاب كبير لنوادر كثيرة ومآثر جليلة ، واذا الكتاميون بعد ما استمعوا اليه قد تعلقوا به يستزيدونه ، وأبو عبد الله لا يرد لهم طلبا ، واذا هو والكتاميون بعد حديث طويل تجمعهم صداقة ، وتجمعهم أخوة ، واذا هم يدعونه ويلحون فى أن يتيح لهم الالمام به مدة اقامتهم بالحج ، ليسمعوا عنه ويعوا . وما رد أبو عبد الله لكتامة طلبهم هذا ، بل لقد سر به . وكان داهية فأخفى هذا السرور فى نفسه ، وزاره الكتاميون مرة ومرة لم ينقطعوا يوما عن زيارته .

وحين أخذ أبو عبد الله يعد العدة للرحيل صحبوه الى مصر ، يحدثهم أبو عبد الله ويسمعون هم عنه ، كل ذلك وأبو عبد الله لا يفصح عن غرضه ، ولقد استمعوا اليه محدثا فأحبوه ، ورأوه تقيا فأجلوه ، وعرفوه ورعا فهابوه ، وأحسوا فيه الزهد فأكبروه .

وهكذا استحوذ أبو عبد الله على ما فى قلوب كتامة كله ، لم يترك شيئا فى تلك القلوب من المعانى الطيبة الا حازه .

غير أن أبا عبد الله لم يفته ـ شأن الداعية السياسي الماهر ـ أن يسائلهم عن بلادهم وأحوالهم ، دون أن يحسوا منه شيئا يدعو الى الشك أو يدعو الى الريبة ، فاستخلص منهم أبو عبد الله ما يريد أن يعرف . وعندما انتهوا الى مصر هم بأن يودعهم ، وهو يظهر أنه يريد الاقامة في مصر طلبا لمجالس العلم ، وما من شك في أنه كان يريد غير مصر ، كان يريد المغرب ، ولكنه أظهر غير ما يخفي يستتر بذلك غرضه . وكان واثقا كل الثقة ان المغاربة من كتامة ، بعد الذي كان منه اليهم ، وبعد الذي كان منهم اليه ، لن يتركوه يقيم في مصر ، فألحوا عليه في أن يصحبهم الى بلادهم : الجزائر .

وتمنع عليهم أبو عبد الله بادىء الأمر ، تمنع الراغب المدل ، يظهر هذه الرغبة في ظل هذا التمنع . ولكنهم على هذا لم يتبينوا منه الا أنه متمنع غير راغب ، فزادوه رجاء ، وزادهم هو ادلالا ، حتى اذا ما أحس أنهم كادوا يضيقون بادلاله ، وخاف أن يتركوه ويمضوا أظهر الرضى على استحياء ، ومضى معهم على الطريق الى الجزائر .

وتسامعت به القبائل ، فقصدت اليه البربر من كل مكان ، حتى اذا ما أنسوا به وأنس بهم أخذ يبشرهم برسالته ، فاذا هم قد زاد به التفافهم ، واذا هم قد أولوه ثقتهم ، واذا الجزائر تصبح مركزا للدعوة الاسماعيلية .

ومن قبل أبي عبد الله جاء الى الجزائر اسماعيليان ، وحاولا أن يمكنا للمذهب الاسماعيلي في الجزائر ، فأفلحا في شيء ، وأخفقا في شيء ، وكان ما أخفقا فيه أكثر مما حاولاه ، ولكنهما على كل حال كانا قد تركا أثرا ما أن ذكر به أبو عبد الله الناس حتى ذكروه .

وما منع ذلك أن يكون لأبي عبد الله في الجزائر خصوم . فلقد عاداه خلق كثير ، منهم الزعماء ومنهم الفقهاء . غير أن هؤلاء وهؤلا لم ينالوا منه شيئا ، فلقد كان الرجل قوي الحجة مفلجا ، لا يثبت له خصم اذا حاجه . وكان اذا خضع له الفقهاء خضع له بعد الفقهاء الزعماء . فلقد كان أبو عبد الله عالما على حظ كبير من العلم ، صاحب حجة وصاحب برهان ودليل ، استطاع بهذا كله أن يقهر أنداده من الفقهاء ، كما قلنا ، وما كان يملك أن يقهر هؤلاء الزعماء بعلمه ، ولكن هذا العلم الذي قهر به الفقهاء قهر به أبو عبد الله الزعماء

أيضا ، فالى عهد أبى عبد الله لم تكن الزعامة الا للعلم ، فاذا قال العالم نعم ردد الناس من بعده هذه الكلمة دون أن يتساءلوا ، واذا أجاب العالم بالرفض رفضوا كلهم معه دون أن يسـأولا ، وهكذا أخضع أبو عبد الله المغرب بعلمه ، وضمه اليه على رأيه ، لم يخض معركة غير تلك المعركة الكلامية التى احتدمت أول الأمر بينه وبين الفقهاء ، ثم انتهت آخر الأمر سلما بينه وبين الفقهاء والزعماء ، واذا حول أبى عبد الله البربر وعامة كتامة .

ومضت الظروف تساعد أبا عبد الله ، فلقد مات عدو له قوى ، كان على تونس حاكما ، وكان يعنيه ألا تقوم للفاطميين قائمة ، وكان يعنيه أن يختفى من بين يديه هذا الداعية الخطير أبو عبد الله .

وكان الملك على تونس حين ذاك ابراهيم الثانى الأغلبى ، من نسل ابراهيم الأول الأغلبى ، الذى أقطعه الرشـيد تونس ليقضى على الأدارسة ، وكما لم يفلح ابراهيم الأول فى القضاء على الأدارسة ، لم يفلح ابراهيم الثانى فى القضاء على الاسماعيلية ، مع اختـلاف يسير . فلقد انتهى الأول عن الأدارسة عن عجز ، وانتهى الثانى عن الاسماعيلية عن موت ، وهكذا ذهب الموت بابراهيم الثانى دون أن ينال من أبى عبد الله شيئا ، كما ذهب بابنه العباس دون أن ينال هو الآخر من أبى عبد الله شيئا ، واذا أبو عبد الله بين يدى خليفة من بنى الأغلب ، هو زيادة الله ، منغمس فى الترف غارق فى اللهو الى أذنيه ، لا يعنى بأبى عبد الله ، ولا يعنى بأمر أبى عبد الله ، ووجد ابو عبد الله الفرصة سانحة ، فأذل الأغالبة وبسط نفوذه على البلاد ، وأخذ يجهر فى الناس بظهور المهدى وأن أوانه قد آن .

١٤

وأنفذ أبو عبد الله الرسل الى المهدى فى سلمية ، يدعونه الى المجىء الى افريقية ، غير أن أبا عبد الله كان قبل أن يرسل الى المهدى قد مهد له النفوس فملأها بحبه ، ومهد له فى العقول فشغلها به ، وكذلك الدعاة يعرفون كيف يستميلون الناس وكيف يجذبونهم الى رأيهم فى هوادة ولين .

عرف أبو عبد الله أن أثقل شيء على الناس أن ينزلوا عن شيء مما يكسبون ، فحاول أن يرد عليهم هذا الشيء القليل الذى يدفعون ، يرد هذا القليل عليهم ، وهو حق مفروض للدولة عليهم ، لينال أضعافه منهم يدفعونه هم مختارين ، ويكون أبو عبد الله قد كسب القلوب فى الثانية مع مزيد من المال الذى يريد ، على حين هو فى الأولى ان قبل هذا القليل المفروض خسر القلوب ، وقد يخسر بعدها فوق هذا القليل من المال الذى قبله •

يحكون أن أبا عبد الله لما أصبحت مدينة طبنة فى يديه أتاه والى هذه المدينة مع نفر من عمال الجباية يقدمون لأبى عبد الله الأموال التى جمعوها من الأهلين ، وأبو عبد الله لبق يعرف من أين جاءت هذه الأموال ، ما كان ذلك ليخفى عليه بعد ما أقام فى الجزائر من أعوام ، ولكنه التفت الى الوالى يسأله : من أين جمعت هذا ؟ •

فيقول له الوالى : من العشور • ويقول أبو عبد الله فى خبث : انما العشور حبوب وهذا عين • وكأن أبا عبد الله كان يريد من ذلك الوالى أن يحمل اليه أكداسا مكدسة من الحبوب على ظهور قوافل من الابل لا تعد ، وأن يعد لهذا كله أهراء واسعة بين يدى أبى عبد الله لتصب فيها ، ولكن أبا عبد الله كان ماكرا وكان خبيثا ، فأراد أن يلفت اليه قلوب الناس ، لاسيما العامة ، يشعرهم أنه معهم ، ويشعرهم أنهم مغبونون ، ويشعرهم أن رسالته أو رسالة الخليفة الذى يدعو باسمه تبغى انصافهم ، من أجل ذلك التفت الى رجال من ثقاته يقول لهم : اذهبوا بهذا المال فليرد على كل رجل ما أخذ منه •

مثل هذا وغيره واجه به أبو عبد الله أهل المغرب ، وأحس أهل المغرب أنه قد أعان فقيرهم ، وخفف عن عاجـزهم ، ورعى كلهم ، فأحبوه كلهم ، وهل الناس ان أحصوا الا بين ضعيف وعاجز وكل وما بعد ذلك فهم قلة مستغلة ونزر طامعون فيما فى أيدى هؤلاء الكثيرين • وما كان أبو عبد الله يعنيه الا أن يرضى كثرة الناس ، وهم جديرون بهذا الارضاء ، وما كان يعنيه أن تغضب هذه القلة من الناس ، اذ كان يرى الحق معه عليهم •

على هذا النحو مضى أبو عبد الله فى مهمته ، وبهذا النحو جمع أبو عبد الله الناس حوله ، وبهذا وذاك أراد أبو عبد الله أن يتلقى المهدى لينادى به خليفة فى ذلك المقر الجديد ، بعد أن عجز أبو عبد الله وبعد أن عجز الدعاة معه عن أن يقيموا المهدى خليفة فى مقره الأول ، حين اختاروا الشرق ميدانا لدعوتهم .

وما كاد رسل أبى عبد الله يبلغون ما أرسلوا به الى المهدى فى سلمية حتى راحت نفسه ، وحتى بدا البشر فى وجهه ، وجرى الشكر على لسانه ، عندما أصبح علناً ما كان سرا ، وذاع الخبر حتى بلغ أسماع المقتفى ، الخليفة العباسى .

وبقدر ما راحت نفس المهــدى تقبضت نفس المقتفى ، وبقدر ما استبشر المهدى عبس المقتفى ، وكاد النكر يجرى على لسانه .

وحين يبلغ هذا كله من نفس الخليفة يلحق به غيره ، فاذا هو أمر ، واذا هذا الأمر ظاهره القبض ، وما ندرى ما بعض القبض .

ولكن المهدى كان أسرع من أمر المقتفى ، فما كـاد أمر المقتفى يبلغ المهدى فى سلمية حتى كان المهدى قد بلغ سجلماسة .

ولقد ظن المهدى أنه نجا حين غادر الشرق ووقع فى الغرب ، غير أنه حين وقع فى الغرب ونزل بسجلماسة وقع فى قبضة أميرها اليسع ابن مدرار ، واذا هو قد وقع فيما فر منه ، واذا هو مقبوض عليه محبوس .

وما نظن المهدى جاز الطريق من ســـلميه الى سجلماسة آمنا كله ، وما نظنه لم يلق كيدا ، بل لقد تعرض لمشاق وتعرض لمحن ، واختفى مرة ليظهر أخرى ، الى أن وصل سجلماسة ، وكان ما كان من القبض عليه على يد هذا الأمير الذى كان لا يزال على صلة بالخلافة العباسية ، يخافها ويرغب فيما عندها .

وحين كان المهدى فى سجنه كان أبو عبد الله فى فتوحه ، فلقد أراد أن يسلم البلاد الى المهدى خالصة ، وكانت لاتزال بين أبى عبد الله وزيادة الله أشياء ، فمضى أبو عبد الله فى حربه مع زيادة الله يرغب

فى أن يخلص منها ومنه • ولقد كتب لأبى عبد الله أن يظفر بزيادة الله، فاستولى على ما عنده كله من مال وسلاح •

وما ان تم له ذلك حتى منع من أن يذكر اسم الخليفة العباسى فى الخطبة ، فمحا بهذا كل ما للعباسيين من سلطان على هذه البلاد . ثم أمر فسكت النقود ، وعلى وجهيها كلمتان اختارهما تحملان التفاؤل كما نقش على السلاح شيئا مثل هذا . وحين كتب لأبى عبد الله النصر كله وآل الأمر كله الى يديه قصد سجلماسة ، ثم قصد الى السجن فأطلق أبا عبيد الله المهدى .

وحين خرج المهدى من سجنه خرجت معه دولة ، هى الدولة الفاطمية لتظل هذا الساحل الافريقى وليكون لها الأمر عليه •

١٥

وجلس المهدى على العرش أميرا للمؤمنين ، يفد عليه الناس داعين مؤيدين • وأخذ يقضى فى شئون الدولة ويدبر أمورها ، يسانده رجلان ، أولهما ذلك الرجل الذى حمل العبء كاملا وسعى فيه مخلصا أبو عبد الله الشيعى ، وثانيهما أخ للمهدى دخل الى الأمر بقرابته أكثر مما دخل اليه بجهده •

ولكنهما على كل حال كانا الرجلين الذين يليان مع المهدى الأمور ، يقضيان فى شىء ويتركان للمهدى شيئا ، وعرفهما الناس مع المهدى ، والملوك يحبون أن يعرفهم الناس وحدهم ، ولا يحبون أن يشرك الناس معهم غيرهم • فاذا ما أحسوا هذه الشركة أحسوا النقيصة تدخل عليهم ، واذا أحسوا النقيصة فزعوا ، واذا فزعوا استبدوا ، واذا استبدوا استأثروا ، يجعلون الأمر كله لهم دون غيرهم •

وهكذا حين أحس المهدى النقيصة تدخل عليه من باب المشاركة فى الأمر فزع فاستبد واستأثر بالأمر دون أخيه أبى العباس ، ودون داعيته الذى مهد له أبى عبد الله ، فاذا هو يسلبهما الكثير مما فى أيديهما •

وكما غضب المهدى حين أحس أنه مسلوب غضب أبو العباس وأبو عبد الله حين أحسا أنهما مسلوبان ، واذا هما ينطويان على شيء وينطوى المهدى هو الآخر على شيء ، واذا هما حزب والمهدى حزب ، واذا الحزبان يتنكر أحـــدهما للآخر ، ويعيب أحدهما الآخر ، واذا دب مثل هذا بين الملوك وبين من يحيط بالملوك انتقل الأمر من ميدان الكلام الى ميدان العمل ، اما أن يملك الملوك عملا يحسمون به الموقف ، واما أن يملك المحيطون بالملوك عملا يحسمون به الموقف . ولقد كان المهدى أسرع الى هذا العمل من أخيه أبى العباس ، ومن داعيته أبى عبد الله فهو يدفع عن شيء فى يده يخاف أن يسلبه ، وهما يدفعان هما الآخران عن شيء فى يديهما يخافان أن يسلباه ، ولكن ما فى يد المهدى كان أكبر مما كان فى يدى أبى العباس وأبى عبد الله ، عن أجل ذلك كان اسراع المهدى وكان ابطاء أبى العباس وأبى عبد الله .

وثمة شيء آخر ينضاف الى ذلك السبب الذى أسرع بالمهدى ، هو أن المهدى كان ملـــكا يملك الأمر كله ، فلم يتلبث ليحتـــاط ويتدبر ، وكان أبو العباس وأبو عبد الله لا يملكان من الأمر الا قليلا فكان عليهما أن يتلبثا قليلا ليحتاطا لأمرهما ويتدبرا . وهما لهذا أخذا يثيران النفوس سرا على المهدى ، وتبلغ هذه المهدى فيضيف الى اسراعه اسراعا ، فاذا هو يقع على أبى عبد الله ، ويقع على أخيه، ويأمر بقتلهما معا .

وما سكت الناس لقتل أبى العباس فثاروا ، وكانوا أكثر ثورة لقتل أبى عبد الله ، فلقد كانت فى أنفسهم جميعا لأبى عبد الله مكانة .

ولكن أبا عبد الله كان قد لقنهم الطاعة لأمـــيره ، وأصبحت الطاعة فى نفوسهم عقيدة ، حتى ليقال ان الذى تصدى لأبى عبد الله ليقتله ، حين وقف من أبى عبد الله هذا الموقف الأخـير وسيفه فى يده ، التفت اليه أبو عبد الله يقول : لاتفعل . فقال له الرجل : ان الذى أمرتنا بطاعته أمرنا بقتلك . ثم أجهز عليه .

هكذا كانت طاعة الناس للمهدى ، لم يعرفوا الطاعة لأبى عبد الله بعد أن عرفوا الطاعة للمهدى ، لهذا ما كاد الناس يثورون لمقتل أبى عبد الله حتى هدءوا ، حين خرج اليهم المهدى يأمرهم بالهدوء .

وهكذا مضى أبو عبد الله مجزيا هذا الجزاء الذى لايتفق وما أداه ، ويذكرنا مقتله بداعية آخر قبله مهد مثل ما مهد ، وفعل مثل ما فعل ، ولكنه هو الأخر مضى مقتولا ، لم تشفع له أياديه الأولى كما لم تشفع لأبى عبد الله أياديه الثانية .

فلقد مهد أبو مسلم الخراسانى للدولة العباسية ، وحمل فى ذلك عبئا كبيرا ، وجهدا متصلا . وحين أحس أبو العباس السفاح أن لأبى مسلم شأنا ، وأن شأنه هذا كاد يخالط شأنه ، خافه وفزع منه ، وسعى الى قتله فقتله ، ومضى أبو مسلم مجزيا بهذا النكر لا الشكر .

وكما مضى أبو مسلم مضى أبو عبد الله ، كلاهما دعا للدولة التى نشأ فى ظلها وآمن بها ، وكلاهما أخاف مولاه ، وكلاهما شك فيه مولاه ، فاذا الجزاء هنا يشبه الجزاء هناك ، واذا المهدى مثل أبى العباس السفاح ، هذا يقتل داعيه ، وذاك يقتل داعيه ، يقسى الملك قلب هذا كما قسى الملك قلب ذاك ، وتنزع الدنيا الرحمة من قلب المهدى ، كما نزعتها من قلب أبى العباس ، لا يلتفت أحدهما لماض طويل ممتد ، كله جهد وكله تضحية .

١٦

ولكنا على هذا لانريد أن نهون من ثورة الناس بالمهدى لقتله أبا عبد الله ، فما نرى أن المهدى أخضع الناس بهذا اليسر اليسير ، ولكنه لقى شدائد كثيرة ، ولقى أهوالا متصلة يخرج من شدة الى شدة ، ومن هول الى هول .

يحكون أن كتامة انتقضت على المهدى حين قتل أبا عبد الله الشيعى ، ونصبوا طفلا لقبوه المهدى ، يزعمون أنه هو . ونشأ لهم فى ظل هذا زعم آخر ، فزعموا ان ابا عبد الله الشيعى لم يمت . فخف المهدى لحربهم ، وسرعان ما قضى على الفتنة بينهم بعد أن قتل ذلك الطفل الذى لقبوه المهدى .

وكما انتقضت كتامة انتقض أهل طرابلس ، يثيرون على المهدى الفتنة ، وكما أخضع المهدى كتامة أخضع أهل طرابلس ٠

وبين هذا وبين ذاك ثارت فتن وحدثت قلاقل ، كلفت المهدى وجيشه شيئا كثيرا ، وما كاد المهدى يخلص من هذه الفتن كلها ، وتستقيم له الحياة ، حتى ودع تلك الحياة ليلقى ربه بصفحته كلها، خيرها وشرها ، تاركا امارة المؤمنين من بعده لابنه أبى القاسم ٠

وما من شك فى أن الحياة لم تصف كلها لأبى القاسم ، فلقد كانت الدولة لاتزال تحمل فى طياتها بقايا من فتن قديمة ، خلفها مقتل أبى عبد الله ، ثم فتن جديدة أثارها أبو القاسم نفسه ، فلقد كانت له حروب شنها هنا وشنها هناك ، ليفسح للملكه أن يمتد ، يعنينا منها نظرته الى مصر وارساله حملة صغيرة اليها ، وما أشرفت هذه الحملة على الاسكندرية وتملكتها ، حتى ردهم عنها الاخشيد ، فقفلوا راجعين الى المغرب ٠

ويموت أبو القاسم ويليه ابنه المنصور اسماعيل . وما صفت للمنصور حياته كلها ، كما لم تصف لأبويه من قبله ، الى أن توفى سنة احدى وأربعين وثلثمائة ، بعد أن قضى فى الخلافة ما يقرب من سبع سنين ، فخلفه ابنه المعز لدين الله ٠

ولقد استقامت الأمور للمعز فى افريقية والمغرب ، يناصره على أمره كله قائد له قوى عرف بالبطش وسعة الحيلة ، وكان الى تلك القدرة العسكرية كاتبا من الكتاب ، وكان على وزارة المعز ٠

فلقد جرب المعز قائده جوهرا الصقلى فى غير موقعة ، فأبلى، الى أن انتهى الى المعز أن الاحوال فى مصر قد اضطربت بعد وفاة كافور الاخشيدى ، وأن الغلاء فيها زاد وعم ، وأن الفتن انتشرت ، وأن بغداد فى شغل عن مصر بفتنتها هى ، عند هذه وجد المعز الفرصة سانحة لأن يثب الى مصر ٠ وحين يفكر المعز فى الوثوب ببلد ما يفكر فى قائده جوهر الصقلى ٠ فسيره الى مصر وخرج يودعه، وسار جوهر يقصد مصر ٠ وهناك على حدودها يلقى الأخشيد فى جند مبعثرة غير متماسكة ، ما يكادون يلقونه حتى يتفرقوا أيدى

سبيا . ودخل جوهر مسجد ابن طولون فصلى فيه ، وكان مما استحدث أنه زاد على الآذان فيما يقولون هذه العبارة : « حى على خير العمل » فكان أول آذان من لونه أذن به فى مصر .

وحين استقر الأمر لجوهر بعث الى المعز يبشره ، وبعث مع البشير بالهدايا ، وبعث مع الهدايا الأعيان من دولة الاخشيديين ، وبعث مع الأعيان نفرا من القضاة ونفرا من العلمـــاء . واستقبل المعز هذا كله . سره خبر الفتح سرورا الهاه عن أن ينظر الى الهدايا ولكنه لم يلفته عن أن ينظر الى الأعيان ، فأمر بحبسهم ، وكاد أن يفعل مثلها بالقضاة والعلماء ، غير أنه ارتد الى نفسه ، فرأى أنــه بعد قليل داخل مصر . وانه لا بد له من أن يمهد لهذا الدخول فى قلوب المصريين ، وليس أقوى على هذا التمهيد له فى القلوب ، ان دخل مصر ، من القضاة والعلماء ، فردهم الى مصر مبجلين مكرمين .

والتفت جوهر يعــد لمقدم المعز ، لا يرى الفسطاط القديمة ولا القطائع من بعدها تغنيــان حاضرتين فى اســتقبال الخليفة شيئا ، وكان هم جوهر أن يضفى على ذلك القدوم ألوانا من المهابة والاجلال ، ليغرس فى قلوب المصريين الطاعة ، ويغرس فى قلوبهم الاعظام للخليفة ، من أجل ذلك أخذ يعد له حاضرة جديدة تليــق بمقدمه ، فكانت القاهرة التى بدأ جوهر فى بنائها استعدادا لمقدم المعــز .

ويقدم المعز الى مصر ، فيدخلها فى الخامس من رمضان سنة اثنتين وستين وثلثمائة . وهو يحمل معه جثث آبائه الثــلاثة : المنصور ، وأبى القاسم ، والمهدى ، وان دل هذا على شىء فانما يدل على ما كان ينويه المعز ، وأنه يريد أن يستبدل وطنــا بوطن ، ويجعل القاهرة مقرا للدعوة الشيعية .

وقديما كانت القاهـــرة محط أنظــار الجميع ، كانوا كلهم يتطلعون اليها ، وكانوا كلهم فيها راغبين ، واذا كان المغرب الميدان الصالح لبدء الدعوة لبعده عن مقر الخلافة ، فلقد كانت مصر فى نظر الفاطميين المكان الصالح للتمكين للدعوة ونشرها هنا وهناك ،

لتوسطها بين الأقاليم الاسلامية شرقاً وغربا ، هذا الى ما تمتاز به مصر من ثروة تفيض على أهلها والقادمين اليها، ولما كانت تمتاز به مصر من جنوح الى الهدوء ، يملى على أهلها فكر يستملى من تلك الاحداث التى مرت به عجلة متغيرة ، تحمل فى طيات تلك العجلة وذاك التغير ألوانا مختلفة ، لا يكاد يكتب لبعضها الاستقرار يوما أو بعض يوم حتى يزحزحه من مكانه لون آخر ، لا ليدوم ويبقى ، ولكن ليتغير هو الآخر ، يصحب ذلك كله عنف وتظله قسوة ، وفيما بين العنف والقسوة دماء تسيل ونفوس تزهق وأبرياء يعذبون . تقوم عروش وتثل عروش ، لا نعرف كيف قامت ، ولا نعرف كيف ثلت ، ولكنها كانت حياة تمر تحت تدبر هذا الفكر المصرى ووعيه. ولقد أفادت الأحداث هذا الشعب أن يلقاها آخر الأمر هادئا ساكنا. لا يلقى اليها بالا ، لأنها كانت أعجل من أن تجعله يتحرك لها أو يلقى اليها بالا ، ولأنها كانت تمضى لا تسبقها أسباب تلفته اليها وتشغله بها ، فزاد ذلك فكره هدوءا الى هدوء .

ولقد ظن الفاتحون هذا الهدوء فى الفكر المصرى خمودا ، وكذا ظنه الفاطميون الفاتحون فطمعوا فى مصر جاعلين هذا الهدوء من بين الأسباب الأولى التى حملتهم على دخول مصر .

ولقد أساءوا بمصر الظن ان كان هذا تقديرهم ، وما هدأ المصريون بدخول الفاطميين وغير الفاطميين قبلهم الا لأنهم رأوا الأحداث أكثر من أن يشغلوا بها وأسرع من أن يلحقوها ، وأبعد من أن تخضع لفكر أو تمليها أسباب ، فتركوها على هذا النحو تمضى ووقفوا هم يتطلعون اليها وهى تمر عجلة تحت أبصارهم . وما نظنهم استطاعوا حتى مع هذه الحال أن يلاحقوا الأحداث بأبصارهم حتى لا يفلت منها شىء .

وما نحسب المصريين هدءوا شيئا حين دخل الفاطميون الا لهذا الذى قدمناه ، ثم لشىء آخر نريد أن نضمه الى ما قدمنا ، وهو أن المصريين كانت قلوبهم أميل الى العلويين منها الى أى بيت آخر ، من أجل ذلك تراهم خرجوا عن هدوئهم الذى استقبلوا

به الفاتحين من قبل الى شيء غير الهدوء . لم يكن غضبا ولا ثورة، وانما كان شيئا أقرب الى البشر والأنس ، لأنهم ـ كما قلت لك ـ كانوا يحبون هذا البيت العلوى ويميلون اليه . ولقد استقبل الفاطميين حين دخلوا مصر كثيرون من المصريين الذين كانوا يعتنقون هذا المذهب الشيعى ويؤيدونه ، هذا الى أن البلاد ـ أعنى مصر ـ كانت كما قدمت لك ـ قد انتهت بعد موت كافور الى حال من الفوضى والجوع والقحط شديدة ، وتبع هذه الفوضى وهذا الجوع وذاك القحط وباء حصد الأرواح حصدا ، حتى أصبح الناس عاجزين عن تكفين موتاهم وعن ان يدفنوهم ، وحتى اضطروا الى القاء جثث موتاهم فى النيل ، لذلك السبب الى سببين قدمتهما لك ، وقفت مصر هذا الموقف الهادىء الساكن تستقبل الفاطميين .

وما من شك فى أن هذا الفتح ـ أعنى فتح مصر ـ كان له أثر اى اثر فى بغداد ودمشق ، وبدا الفاطميون يتحولون بأبصارهم بعد فتح مصر الى ما وراء مصر .

وهكذا زال سلطان الاخشيديين والعباسيين عن مصر ، وأضحت هذه البلاد فاطمية تنافس بغداد حاضرة الدولة العباسية ، التى أخذت الشيخوخة تدب فيها وتوهن عظامها ، وأصبحت مصر دار خلافة بعد ان كانت دار امارة ، تابعة للدولة الفاطمية فى المغرب .

١٧

وتحول المصريون من ولاء الى ولاء ، تحولوا من ولاء كانوا يدينون به دينونة المحكوم للحاكم ، الى ولاء تدين به قلوبهم وتمتلىء به عواطفهم،تحولوا من ولاء العباسيين الى ولاء الفاطميين .

ولقد نجح الفاطميون حين جعلوا القاهرة مقرهم ، وحين أخذوا ينشرون الدعوة هنا وهناك ، لا يألون جهدا ولا يدخرون وسعا .

وكما كان للفاطميين هذا الطموح المذهبي كان لهم الى جانبه طموح سياسي ، فلقد جربوا الحياة وعرفوا أنه لا انتعاش لرأي الا اذا حمته الدولة وحماه السلطان ، وكم عانوا من قبل حين فقدوا هذا السلطان وحين أرادوا نشر رأيهم ومعتقدهم ولا سلطان لهم ، فلقد طال بهم الزمن وتعثرت بهم الخطا حين فقدوا هذا السلطان ، وكان هذا السلطان في أيدي خصمهم كلما أقاموا صرحا هدمه عليهم خصمهم ، وكلما مكنوا لمعتقدهم نقض عليهم ذلك خصمهم ، يفرق جماعتهم ويقضي على آحادهم .

وما قدر لهؤلاء العلويين أن يخرجوا من باطن الأرض الى ظاهرها ، وأن يجاهروا الناس بما يؤمنون به بعد أن كانوا يساروهم ، الا حين استقامت لهم هذه الدولة في المغرب وحاطها السلطان ، ومكن لها هذا السلطان برهبته ، ودفع عنها هذا السلطان بقوته .

والدعوات أحوج ما تكون الى أن يساند حجتها ويساند أدلتها سلطان يدفع عنها الكيد أولا ، ويجمع اليها الناس ثانيا . وهي اذا ما توفر لها هذان الشرطان مضت تسوق حجتها ومضت تكشف عن أدلتها ، لا تنفر منها العقول لتتدبرها ، ولاتتحول عنها القلوب لتتفهمها ، اذ أصحاب العقول أنفر من أن يفتحوا قلوبهم لجديد لأول وهلة ، وأصحاب القلوب أبعد من أن يقبلوا على جديد لأول وهلة ، ولابد للعقول وللقلوب من هذا السلطان الهين أول الأمر يجمعها حول الرأي حينا لتسمع ، وأمدا قصيرا لتفقه ، حتى اذا ما وعت وفقهت كان لها الخيار بعد هذا أمام الحجة وأمام الرأي ، ولم يكن للسلطان عليها سبيل ، اذ السلطان الذي يفلح أولا في جمع أصحاب العقول واعداد أصحاب القلوب لا يفلح بعد هذا وذلك في حمل العقول ولا حمل القلوب على أن تؤمن بالرأي وتعتقده الا بعد أن تتبين صلاحه وفساده ، فهذا السلطان كما أحب لك أن تفهمه أشبه بسلطان الأب الذي عليه أن يضع رجل صغيره على أول الطريق الى الكتاب ليصله به والصبي بعدها أمر المضي فيه أو التحول عنه بيديه .

وهؤلاء الشيعة كان لهم رأى يؤمنون به ويؤمن به معهم الناس ، ويؤمن به مع الأيام أناس آخرون ، ولكنهم كانوا قليلين اذ كانوا على رهبة من سلطان الخصم ، فلا ينفتح لهم عقل ، ولا ينفتح لهم قلب لسماع الدعوة ، ولم يكن العلويون يملكون هذا السلطان الذى فى أيدى خصمهم ليجمعوا الناس حولهم اجتماعا قصيرا ليلقوا اليهم ما يحبون ، وانما كان العلويون ودعاة العلويين يلمون بالناس لماما لا يتلبثون ، والناس يتلقفون عنهم لماما عجلين، من أجل ذلك امتد بالعلويين الزمن ، وعانى الدعاة المحن ، ولم يصل العلويون الى ما وصلوا اليه الا بعد دورة طويلة دارتها عجلة الايام على أجساد وأجساد ، وازهقت ارواحا وارواحا ، وطوحت فى السجون بأناس وأناس ، واذا هم آخر الأمر أصحاب الأمر ، واذا السلطان فى أيديهم ، واذا هم يملكون أن يجمعوا الناس اليهم ، وأن يسخروا ذلك السلطان فى خدمة هذا الرأى ، بعد أن كانوا يسخرون الرأى لكسب هذا السلطان .

وما ان ضمن العلويون السلطان حتى اتجهوا بعيونهم صوب الشام يريدون أن يضموها الى ملكهم الذى أصبح لهم فى مصر ، ولقد كانت الشام فى ظل مصر يوم أن كان الاخشيديون على مصر ، ولقد أصبحت مصر الى الفاطميين ، اذن فما بال الشام لا يكون الى الفاطميين أيضا ، ثم ما بال دمشق فيما بعد لا تكون مركزا لنشر الدعوة الى العراق وما بعد العراق .

وهكذا أخذ الفاطميون يستغلون السلطان أوسع استغلال ، كلما وقع فى أيديهم مركز للدعوة طمعوا فى غيره ، وأغلب الظن أنهم حين استولوا على مصر كانوا قانعين بها مركزا وسطا لنشر دعوتهم ، فاذا هم حين ينزلون مصر وتصبح مصر فى أيديهم ، تتفتح أنفسهم لأمل أوسع ، ويجدون مصر لا يصل اشعاعها الى البلاد النائية،ويرجون أن يكون لهم مركز آخر يبلغ اشعاعه الى مايريدون. ولا ضير عليهم بعد هذا ان يتلمسوا لذلك الفتح حججه ، وأن يقولوا أن الشام كانت للاخشيديين فى مصر ، ولقد آلت مصر الى الفاطميين فيجب أن تئول الشام الى الفاطميين .

وهكذا أخذوا يصورون قضاياهم هـذا التصوير السياسي ، لا يريدون أن يصوروها تصويرا مذهبيا ، اذ السياسة قضية عامة من اليسير أن يجتمع الناس عليها كلهم ، والمذاهب قضايا خاصـة ليس من السـهل أن يجتمع الناس عليها كلهم ، وما أحب الفاطميون ان يعدلوا عما لاخلاف عليه الى ما الخلاف عليه واقع . فاختـاروا ان يصوروا أعمالهم وفتوحهم ذلك التصوير السياسي ليأمنوا الخلاف عليهـا .

وبعد حياة حافلة بالأعمال الكثيرة ما بين فتح للشام وفلسطين، وما بين تشييد وتعمير ، وما بين ابتداع مواسم وحفلات ، مات المعز بعد أن حكم أربعا وعشرين سنة . قضى فى مصر منها نحوا من أربعة أعوام . وخلفه على الملك ابنه العزيز بالله ، فقضى فى الملك نحوا من عشرين عاما ، تزيد عليها قليلا ، قضى أكثرها فى حرب القرامطة الذين هالهم ان تخرج الشام من أيديهم ، وكانت لهم عليها اتاوة .

١٨

وفى رمضان من عام ست وثمانين وثلثمائة ـ وهو العام الذى توفى فيه العزيز بالله ـ بويع الحاكم بأمر الله بالخلافة . ومن قبل هذا بأعوام ثلاثة كان العزيز أبو الحاكم قد عهد اليه ، وكان عمر الحاكم عندما عهد اليه أبوه لايجاوز الثامنة ، كما كان عمر الحاكم عندما ولى الخلافة لا يجاوز الحادية عشرة الا بأشهر تكاد تبلغ الستة .

من أجـل ذلك قام الى جانبه وصى ، هو أسـتاذه ومربيـه « برجوان » ولقد ظل « برجوان » صاحب الأمر دون الحاكم الى أن بلغ الحاكم الخامسة عشرة من عمره .

والحاكم بأمر الله بين الخلفاء الفاطميين حاكم ملحوظ ، وعهده من عهود الفاطميين عهد ملحوظ ، يكاد ينسى الناس كلهم الخلفاء الفاطميين كلهم ، ويذكرون الحاكم . ويكاد الناس كلهم ينسون عهود الخلفاء الفاطميين كلها ويذكرون عهد الحاكم ، لا لأن الحاكم شغل بالفتح وشغل ببسط السلطان ، ولـكن لأنه شغل بأشياء داخلية ، فلقد عاش الحاكم لرأيه ومعتقده أكثر مما عاش للسياسة .

وكأن انبساط السلطان الفاطمي واستقرار الدولة كان لهما أثر أي أثر في لفت الحاكم عن أن يسخر السياسة في خدمة العقيدة والمذهب ، ولفتاه الى أن يعيش للعقيدة والمذهب ، وهكذا قضى الحاكم حياته واليا مشغولا بأمر العقيدة وأمر المذهب ، يعنف على النصارى واليهود ، ثم يقرب اليه النصارى واليهود ، يهدم الكنائس ثم يعود فيترك هدمها .

وهكذا بدأ الحاكم مترددا كل التردد ، يضفي على نفسه لونا من ألوان الالهام والاستيحاء ، واذا هو على أثر هذا النزاع الذى أثاره بينه وبين السنيين يخلق بين يديه طائفة من الناس تغلو في اكباره ، واذا هي تكاد تؤلهه . وهذه الطائفة هي طائفة الدروز الذين شغلوا الحاكم بما ابتدعوه حوله ، وشغلوا الناس بهذا الذى ابتدعوه حول الحاكم ، وفتحوا على الناس بابا من الفتنة في الرأى جديدا .

لهذا عاش الحاكم ثقيلا على الناس لا يثق به الناس حتى تتبدل ثقتهم به بعد حين شكا ، ولا يثق هو بالناس اذ سرعان ما تتبدل ثقته بهم شكا .

وفي ظل هذا تعب الناس وتعب الحاكم ، وكان تعب الناس أشد من تعب الحاكم ، فلقد كان تعبه لهوا من اللهو ، وكان تعب الناس جدا من الجد ، يتبدل الحاكم من حال الى حال ليسرى عن نفسه ويأنس بما يفعل ، ويتبدل الناس مع الحاكم من حال الى حال يحملون الجهد ويعانون المشقة .

ولقد أطمع هذا التقلب من الحاكم ، كما أطمعت هذه المحنة التي امتحن بها الناس من الحاكم ، ان يغير على مصر مغيرون لم يفلح الحاكم في صدهم والقضاء عليهم الا بعد جهد ومشقة .

وقضى الحاكم نحوا من خمسة وعشرين عاما يشقى بالناس ويشقى به الناس ، واذا هو مقتول ، بعد هذه الاعوام الخمسة والعشرين .

ويعزو نفر من المؤرخين قتله الى تدبير أخته ست الملك ، فلقد دبرت لقتله خوفا على نفسها من شره ، ثم لما بدا عليه من ميله الى

الدروز الذين ألهوه . كما يعزو نفر آخرون قتله الى رجل مصرى من الصعيد قتله وغيرة للدين .

فان كانت الاولى فهى تدلك على ما كانت تعتمد عليه ست الملك أخته من غيرة على الدين فى الظاهر .

وان كانت الثانية فهى تدلك على ما كان يحمله آهل مصر ـ وما قتله الا واحد من عامتهم ـ من حمية للدين الذى وجدوا الحاكم يكاد يعدو عليه .

والاثنتان معا تكشفان لك عن أن الحاكم كان على خلاف ما يرضاه الناس للخليفة دينا وعقيدة ، وأن الناس كانوا ضيقين به ، يستوى فى ذلك أكبرهم وأصغرهم ، والمحيطون به والبعيدون عنه ، يمثل لك الجانب القريب أخته ، ويمثل لك الجانب البعيد هذا الرجل الذى قيل عنه انه قتله .

وهكذا مضى الحاكم دون أن ينفع نفسه ، ودون أن ينفع الفاطميين ، ودون أن ينفع العقيدة الفاطمية ، بل لعله كان نقطة التحول التى عندها بدأت العقيدة فى الفاطميين ترجع القهقرى ، وبدأ الناس لاتجذبهم الى تأييدهم أسباب ، وبدأت تلك الدولة التى وجدت لتمضى الى الأمام تقف لتعود الى الوراء ، وبدأ هذا الملك الذى ناله أصحابه بعد جهاد طويل لا يبشر بأنه سيبقى الى أمد طويل . وبدأت الدولة التى دخلت الى الحياة أحرص ما تكون عليها تخرج من الحياة آسف ما تكون عليها .

وهكذا يبنى البانون أعنى ما يكونون بأن يشيدوا ، لا يقدرون ان سيرثهم أغفل الناس عما بذلوا وأبعدهم عما ضحوا . ولو احس البانون أن جهدهم للعابثين لكفوا ، ولو أدركوا أنهم أراقوا الدم ليهدره من بعدهم لأحجموا ، ولو علموا انهم بذلوا الأرواح ليستروح بها من بعدهم لضنوا بأرواحهم ، ولكنها سنة الحياة لاندرى كيف تمضى ، يؤسس جاد لعابث ، ويجمع قاصد لمسرف ، ويبنى بان لهادم ، ويسعى ساع لقاعد ، فاذا ما كسبته الحياة على أيدى الجادين القاصدين البانين الساعين تفقده على أيدى العابثين المسرفين الهادمين القاعدين ، وما كان عمل الجادين ومن اليهم لهم نفعه ، كما

لم يكن عمل العابثين ومن اليهم عليهم شره ، بل ان المفيدين من هذا الخير وذاك الشر أمم وشعوب بين هؤلاء وهؤلاء تعطى ثمن هذا الخير عن بذل من دماء وأرواح ، وتنال غرم هذا الشر مسرفا عليها فيما هو أكثر من الدماء والارواح .

١٩

ولقد قامت الدولة الفاطمية حين قامت يرى أصحابها ـ ويرى الناس الذين ساندوها معهم ـ انهم أحق بزعامة المسلمين لأنهم من آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم، فهم نسله من فاطمة رضى الله عنها ، ثم هم من نسل على بن أبى طالب الهاشمى كرم الله وجهه ، فهم هاشميون أولا ظلمهم الأمويون حين اغتصبوا هذا الحق منهم ، وهم فاطميون ثانيا حين استأثر بهذا الحق العباسيون دونهم . .

بهذه الحجة السياسية ذات الصفة الدينية دعا الفاطميون لأنفسهم ودعا معهم الناس، تغلب الصفة الدينية الصفة السياسية، فتستحيل الحجة السياسية عقيدة دينية ، والناس فى ظل ما يمت الى الدين بسبب غيرهم فى ظل مالا يمت اليه بسبب ، وما كان المسلمون مع تلك الادوار التى مرت قد استقامت لهم الصفات السياسية المستقلة فى الحكم ، بل عاشوا تلك الأدوار لا انفصال لسياستهم فى اقامة الحاكم عليهم عن هذه النزعة التى أثيرت منذ بدأ الخلاف بين الأمويين والهاشميين على الحكم ، فما نظروا الى هذا الحكم كما نظروا اليه حين اختاروا أبا بكر ، ولا نظروا الى هذا الحكم كما نظروا اليه حين ولى عمر ، ولا نظروا الى هذا الحكم نظرتهم حين شغلوا باختيار عثمان ، ولكنهم حين اختاروا عثمان بدءوا يرجعون شيئا عما كسبوا ، وحين اختلفوا على على أخذوا يثيرون شيئا على ما بقى فى أيديهم مما كسبوا ، وحين مكنوا لمعاوية استعدوا ليفقدوا كل ما كسبوا ، وحين ورث البيت الاموى الحكم ، كانوا قد فقدوا كل ما كسبوا ، فأشقوا أنفسهم وأرخوا لحكامهم لينعموا وينعم فى ظلهم نفر معدودون .

وبقى هذا الخلاف على الحكم قضية كبرى شغل بهـا الذين نالوه يدافعون عنه ، وشغل بها الذين حرموه يسعون اليه ، وشغلت الأمة مع هؤلاء وهؤلاء تدفع الثمن غاليا من دماء وأرواح وراحة للذين نالوه تدفع عنهم ، وتدفع الثمن غاليا للذين حرموه من دماء وأرواح وراحة وهم ينشدونه تسعى معهم اليه ، وعبرت هذه الأمة التى أوتيت أسباب الخير من دين قويم ، يقيم لهـا حياتها ، ملفوتة عما تمكن به لتلك الحياة القويمة • لا يلفتنا عن ذلك أنها كسبت مجدا وكسبت فتوحا ، ولكن يردنا اليه تلك الويلات التى ذاقتها الأمة ، ثم ذلك الانهيار السريع الذى منيت به ، ثم ذلـك التراخى الذى مكن منها خصومها فقطع عليها ابقاء الطويل الممتد ، وحال بينها وبين أن تكسب أكثر مما كسبت ، وبين أن تكون الأمة الخالدة ، وأسباب الخلود فى يديها •

ثم اذا تلك الأسباب السياسية ذات الصفة الدينية التى دخل بها الفاطميون الى الحكم تفقد صفتها الدينيـــة التى حمت تلـك الأسباب السياسية ، فاذا الناس يتنكرون لتلك الأسبابالسياسية حين أنكروا على الفاطميين الصفات الدينية ، واذا الناس يرونتلك الصفات الدينية التى خرج عليها انفاطميون حجتهم فى الخـــروج عليهم ، واذا الفاطميون يفقدون الأسباب التى جمعوا الناسحولهم بها ، واذا هم فى واد والناس فى واد ، ولقد خسر الفاطميون ولكن النــاس كانوا أكثر خسرا ، فلقد ذهب ضر الفــاطميين بأنفسهم بذهابهم ، وبقى لامة ضرها الذى نالها ، ولقد جنى على الفاطميين خلف لم يرعوا للسلف عهدهم ، وكما جنى هـــذا الخلف على الفاطميين جنى على الأمة مع هذا السلف .

ولأمر ما أراده نفر من المتسللين الى القومية العربية فألقوا فى روع الضعفاء من الخلفاء الفاطميين أنهم غير بشر ،وانهمفوق البشر، فلقد أخذوا على المهدى عبيد الله شيئا من ذلك الخروج ، ولا يعنينا أن المهدى أراده ، ولا يعنينا أن غير المهدى من المحيطين بـه المغرضين أرادوه ، ولكن يعنينا أن المهدى سكت عنه ولم يبطله ، فلقد أحاطه الناس بهالة من التقديس ، يزعم بعضهم أنه المهدى ، ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويزعم بعضهم أنه حجة الله على خلقـه ،

ويسر بعضهم الى بعض أنه رسول الله ، ويغلو بعضهم في الحديث الى بعض فيقولون : هو الله الخالق الرازق .

وما نشك في أن كثيرا من هذا كله كان لغوا من اللغو ، وما نشك في أن المهدى لم يكن يرى هذا ، ولكنا حين ننفى هذا لا يجب أن ننفي أن المهدى كان يميل الى أن يضفى على نفسه شيئا آخر غير هذا ، يريد به أن يكون غير الخلفاء السابقين ليغرس في القلوب محبة لاتنفك ، ويغرس في النفوس تعلقا لايزول ، فأتاح للناس أن يحملوا ما أراد غير ما أراد ، فاذا هذا الذى شاع يتأكد ، واذا هو مع هذا الذى شاع وتأكد لا يحب أن يدفعه ، يحسبه شيئا من الكسب ، يذهب ما فيه من غلو ويبقى له ما فيه من قصد ، فاذا ما في الأمر من غلو يبقى ليفسد عليه شأنه ، واذا ما في الأمر من قصد لاينتفع هو بـه .

وعلى أية حال فلقد كان المهدى يؤمن على صورة ما بمذهب أقام عليه الدعوة ، هو هذا المذهب الاسماعيلي الذي مر بك ، لم يشأ أن يجعل الأمر سياسة تتصف بتلك الصفة الدينية ، التى مهدت له أن يدخل الى الحكم ، وانما أراد أن يجعل من تلك الصفة الدينية عقيدة جديدة تجعل الحكم له ولآله لا يخرج عنهم .

من أجل ذلك جد المهدي في نشر الدعوة لمذهبه لا لسياسته ، ولقد كان من الخير له أن يجمع الناس حول سياسته التي يمليها الدين ، والتى دخل بها الى الحكم ، لا أن يقيم بين يدى سياسته عقيدة لا يعرفها الناس ليجعل منها وسيلة للبقاء في الحكم .

ولكن الفاطميين وصلوا الى الحكم بتلك الصفة الدينية ، عرفوا قدرها ، وعرفوا أنهم لو لم يكونوا لها مالكين ما دخلوا الى الحكم ، فالتفتوا الى تلك الصفة الدينية يريدون أن يجعلوا منها شيئا آخر ، ليضمنوا الحكم الذى دخلوا اليه ، فاذا هذا الحرص يجرهم الى غير ما أحبوا ، واذا هم يخرجون من الحكم بما أرادوا أن يمكنوا لأنفسهم به .

٢٠

ولقد خلف الفاطميون المغرب بعد أن أمضوا به نحوا من ستين عاما ، وحين خلفوه تركوا من خلفهم دعاتهم يدعون لهم الناس ليدخل من لم يكن قد دخل في مذهبهم على الدينونة لآل البيت ، وكان السنيون يقفون لهم بالمرصاد هناك ، من أذعن منهم نال من عطاياهم ومن أنكر عليهم أنكروا عليه ، ونال من عذابهم واضطهادهم واذا المغرب في فتنة شاملة يشارك فيها العامة الخاصة ، واذا الدعوة الفاطمية تضعف لتزول ، واذا المغرب الذى بدأ فاطميا يعود غير فاطمي ، واذا هو في سنة ٤٣٣ هـ قد قطع كل ما كان بينه وبين الدعوة الفاطمية من صلة .

ولقد دخل الفاطميون الى مصر بهذا السبب الاول الذى دخلوا به الى المغرب ، فلقد وجدوا في مصر كما وجدوا في المغرب قلوبا تميل اليهم وتعطف على حقهم ، ولقد كان الناس في مصر كما كانوا في المغرب لا يعرفون للفاطميين غير هذا السبب الطيب الحلو الذى يجذب الناس نحوهم ، بهذا قنع الفاطميون أولا ، وبهذا اقتنع الناس ثانيا ، ولكن الفاطميين بدءوا يذيعون عن أنفسهم شيئا غير الذى دخلوا به على الناس وأحبهم به الناس ، فاذا هم يحملون دعوة لم يعرفها الناس لهم أولا ، واذا الناس يعرفون لهم دعوة تردهم الى تفكير وتردهم الى تحلل مما أعطوا .

وأحب أن أصور لك تلك الدعوة كيف استحالت من حق يسير الى حق معقد ، ومن فكرة هينة على العقول والقلوب الى فكرة مستعصية على العقول والقلوب ، ومن وسيلة الى اقامة حكومة عادلة قلوب الناس متعلقة بها ، الى وسيلة في اقامة حكومة مستبدة قلوب الناس منصرفة عنها ، ومن سبب رغب الناس فيه يستملون فيه عن ايثارهم لآل البيت ، الى سبب رغب الناس عنه يستملون فيه عن ايثارهم لدين سيد هذا البيت رسول الله الى الناس كافة .

فلقد بدأت الدعوة الاسماعيلية التى دعت الى امامة اسماعيل ابن جعفر الصادق ترسم لنفسها نظاما ذا صفات ، تعنى انه

تجمع الدنيا لها عن طريق ذلك النظام ، لا تعنى أن يكون للدنيا نظامها الذى هيأه لها الدين ، تريد أن تمكن لنفسها بنظامها الذى ابتدعته ، ولا تريد أن تمكن للدنيا بذلك النظام الذى أراده لها الدين ، فهى قد عنت نفسها لتفرض نفسها على الناس ، وعنت الناس لتخضعهم لها ، من أجل ذلك دبرت لنفســها ذلك النظام الذى ألخصه لك فى هذه الأسطر :

فكان الدعاة يبدءون الناس أول ما يبدءونهم به باليسير الذى يتفق وعقل المدعو ودينه ومذهبه ، ثم يثيرون شكوك الناس حول المشكل من المسائل الدينية ، فاذا ما أنسوا من الناس ميلا الى استكناه هذا المشكل انتقلوا بهم الى أن علم هذا عند الأئمة السبعة من ولد اسماعيل ، وأنه لا مناص من اتباعهم للنجاة من عذاب الله على أيديهم .

وبهذا يخلعون المدعــو عما يعتقد الى ما يعتقدون ، ويؤمن معهم بالأئمة السبعة : على ثم الحسن ثم الحسين ثم على زين العابدين ثم محمد الباقر ثم جعفر الصادق ثم اسماعيل ابنــه ، مؤيدين دعواهم تلك بأن الله قد جعل الكواكب السيارة سبعة ، وكذلك جعل السموات سبعا والأرضين سبعا ، لذلك كان هؤلاء الأئمة سبعا ، يسقط بعضهم اســماعيل ويجعل الإمام الســـابع ابنه محمدا ، ويجعلون هذا الامام السابع هو صاحب الزمان ، وأن عنده عـلم الباطن وعلم التأويل ، وأنه يعرف الأسرار وأن دعاته هم الوارثون .

وكما كان الرسل الذين جاءوا بالشرائع ســبعة كان الأئمة سبعة ، لكل رسول صاحب يأخذ عنه ، ويكون ظهيرا له فى حياته ، وخليفة له بعد وفاته . وهؤلاء الأئمة السبعة هم المساعدون . هم الأساس والصامتون ، يعنون بالأساس أولهم وهو على ، ويعنون بالصامتين الستة من بعده . الى أن يصلوا بالمدعو الى أن هذا الامام السابع فى مكان النبى وأن طاعته واجبة .

وفى ثنايا هذا النظام كثير من الحشو الفلســـفى المضلل ، الصارف للناس عن المنهج الدينى السليم ، أراد به المتسللون الى العرب أن يزلزلوا عقائدهم ، وأن يصرفوهم عن دينهم أولا ، ثم عن دنياهم ثانيا ، التى دخلوها بفضل هذا الدين أقوياء وكانوا على وشك أن يجعلوا الدنيا كلها لهم دينا وسياسة .

ولقد اشترك الفاطميون في هذه الدعوة وحاطوها بالكثير من عنايتهم ، وجعلوا لداعي الدعاة أيامهم شأنا أي شأن ، وجعلوا مقره دار الخلافة ، وعنه يأخذ الداعون وينتشرون في الأرض ، كما أضفوا على داعي الدعاة هذا صفات لها قدسية مستمدة من قدسية الخليفة ، فكان بعد أن يحاضر داعي الدعاة الناس ، يقبل عليه الناس فيقبلون يديه ثم يمسح على رؤوسهم برقعة فيها امضاء الخليفة .

وهكذا رضي الخلفاء الفاطميون من الناس أن ينظروا اليهم على أن لهم قـــوة الهية ، ويقـــال ان نفرا من المغرضين الذين كانوا يحرصون على أن يشيع هذا بين الناس كان ينصح المعز بأن يقضي يوما عينه له محتجبا عن الناس ، غير ان المعز أغراه ذلك فاحتجب عن الناس أشهرا وقيل عاما ، حتى ألقى في روع الناس أنه صعد الى السماء ، ويتمكن هذا في قلوب الأغرار ، فكان اذا رأى أحدهم سحابة تمر فوق رأسه ، وكان راكبا ترجل ورفع اليها بصره في خضوع وهو يقول : السلام عليك يا أمير المؤمنين .

وفي هذا الشعر الذي مدح به ابن هانيء المعز ، ما يكشف لك شيئا عن ارتياح المعز لما أضفاه الناس عليه ، فلقد أنشد ابن هانيء المعز ، والمعز يسمع :

هو علة الدنيا وقد خلقت له ولعلة ما كانت الأشـــياء

فلم يقل المعز شيئا ، وقد نقول ان المعز رأى ذلك غلوا من غلو الشعراء . ولكنا نرى ابن هانيء يخطو من هذا الى غيره فيقول للمعـــز :

أقسمت لولا أن دعيت خليفة لدعيت من بعد المسيح مسيحا
شهدت بمفخرك السموات العلى وتنزل القرآن فيك مســـيحا

فما ينكر عليه المعز . وقد نقول ان المعز عده أيضا غلوا آخر من غلو الشعراء ، ولكن ابن هانيء يعدو هذا وذاك الى غيره فيقول للمعـــز :

هذا الذى ترجى شفاعته غدا حقا وتخمد أن تراه النار

ويسكت المعز فلا يقول شيئا ، وما نظنه عد هذا غلوا من غلو الشعراء • فلقد كان ابن هانىء من هؤلاء الدعاة للدعوة الفاطمية بشعرهم وحسبك أن تقرأ له هذين البيتين اللذين بعث بهما الى المعز ورضيهما المعز :

ورو‌ح هدى فى جسم نور يمده
شعاع من الاعلى الذى لم يجسم
فأقسم لو لم يأخذ الناس وصفه
عن الله لم يعقل ولم يتوهم

٢١

وهكذا توسط الفاطميون الأمر مع الناس بغير ما استقبلوهم به ، واذا المصريون بعد المغاربة لم يرضوا أن يؤله الفاطميون أنفسهم فسخطوا ، وخسر الفاطميون الوسيلة التى دخلوا بها الى قلوب الناس ، أودخلوا بها الى الحكم بعد أن كسبوا قلوب الناس ، وخسر الناس الفاطميين بعد أن لفوا حبلهم بحبلهم ، وبعد أن عقدوا الأمل على تلك التجربة التى رجوا فى ظلها الخير ، وبعد أن بذلوا فى سبيلها مابذلوا ، واذ الناس خاصتهم وعامتهم يتنكرون لعقيدة الفاطميين أولا ليتنكروا لحكمهم ثانيا ، فعلى سلم العقيدة رقى الفاطميون للحكم ، وعلى سلم العقيدة نزل الفاطميون عن الحكم •

تحس ضيق المصريين بالفاطميين وتنكرهم لهم عقيدة وحكما فى هذين البيتين اللذين كتب بهما شاعر مصرى فى ورقة وضعها على المنبر ، ويرقى الخليفة العزيز أبو الحاكم المنبر فتقع له الورقة ، فاذا فيها :

بالظلم والجور قد رضينا وليس بالكفر والحماقه
ان كنت أعطيت علم غيب فقل لنا كاتب البطاقه

كانت هذه حال العزيز وحال الناس منه ، وما كان العزيز يسرف فى الافصاح عن نفسه افصاحا كثيرا ، وكانت حال الناس مع

الحاكم ابنه أشد تنكرا وأشد سخطا ، لأن الحاكم أفصح عن نفسه افصاحا كثيرا ؛ لم يرده عن غيه ما وقع لأبيه وما وقع لمن قبل أبيه من آجداده ، لأن هؤلاء الحكام كما قلت لك كانوا يريدون الدنيا لهم لا للناس معهم ، وكانوا يريدون أن يمكنوا لأنفسهم لا للناس ، وهم حين فعلوا الأولى خسروا آنفسهم بعد آن خسروا الناس ، ولو فعلوا الثانية لكسبوا أنفسهم بعد آن يكسبوا الناس ٠

ولقد دخل الحاكم ، الحياة يؤمن بما يقول الغلاة : ان روح الاله حلت فيه ، ويقر ما قاله غال من الغلاة فى المسجد العتيق ، وبحضرة قاضى القضاة : باسم الحاكم الرحمن الرحيم ٠ ويرتاح الى ما كان يفعله بعض الغلاة حين يرونه فى الطريق فيركعون ويصيحون : أنت الواحد الأحد والمحيى المميت ٠

ولو كان الحاكم ذا فطنة لرد هذا على الغلاة ٠ وهم قلة ، لتخلص له قلوب الناس ، وهم كثرة ، ولكن الناس اذا خدعوا ضلوا ، واذا ضلوا فقدوا الأسباب الصحيحة ، وأبعد الناس عن أن يضل هو أبعدهم عن أن يخدع ، فليس شىء شرا من الخديعة على عقول الناس، اذا دخلت على عقول الناس أفسدت كل ما لهم ، فلا يعودون يصدرون عن حكمة ، ولا يعودون يصدرون عن روية ، ولا يعودون يصـــدرون عن تدبير ٠

وهكذا دخلت الخديعة على عقل الحاكم كما دخلت على عقـــول غيره من قبله ، ولكن حين دخلت على عقل الحاكم صادفت منه هوى كثيرا وميلا كبيرا ، فاذا هو مع الغلاة ، واذا هو يمعن امعان الغلاة ، لا يدعهم وحدهم يحملون العبء فيجد له عند الناس شبه عذر ، بل يمضى مع الغلاة يحمل فوق عبئهم ، فاذا هو لا يجد عند الناس عذرا ، أو شبه عذر ٠

فلقد رووا عن الحاكم أنه كان يحتفظ عنده بتمثال يســـميه أبا الهول ، وكان اذا سرق من تاجر شىء ذهب إلى الحاكم يشكو اليه ما سرق منه ٠ وكان الحاكم يقف الشاكى بين يدى التمثال يقص عليه ما ضاع منه ويصفه له ٠ وكان الحاكم قد أقام فى جوف التمثال رجلا يسمع ويجيب ٠ وكأنى بالحاكم كان على علم بما يسرق من

الناس ينقله اليه عيونه ، ويلقيه هو على هذا الرجل الذى أقامه فى جوف التمثال • أو لعل الحاكم ـ وهذا ظن ـ هيأ لتلك السرقات أن تقع بعلمه حتى لا تفوته ، وحتى يتمكن من أن يقول رجله قولا غير كاذب ، وسواء أكانت هذه أم تلك ، فلقد عرف الناس أن تمثال الحاكم يخبر بالغيب ، وأن تمثال الحاكم يعرف السرائر ، وأن تمثال الحاكم سر من الحاكم ، فصدق به المغرورون المخدوعون • وأضاف هذه الغلاة الداعون الى الحاكم ، فاذا هم يجمعون الى حججهم حجة أخرى •

وكان الحاكم يقسو على السارق حين يخبر رجله به ، فيتكل به نكالا شديدا ، ثم يقتله • فألقى بهذه الحيلة درسا قاسيا على السارقين • فاذا هم يكفون عن السرقة ، واذا التجار يتركون حوانيتهم فى أمن لا يكادون يغلقونها •

يحسب الحاكم أنه علام الغيوب ، ويحسب الناس قد آمنوا به علاما للغيوب ، فتطمئن نفسه ، وما اطمأنت نفوس الناس فلقد عرفها الناس حيلة وعرفوا أنهم يجهلون أمرها ، وعرفها الحاكم أولا ثم اغتر فحسبها حقيقة ، وحسب الناس معه على هذه الحقيقة •

وهكذا يخدع المخدعون أول ما يخدعون أنفسهم ، يخالون بادىء ذى بدء أنهم قد خدعوا الناس ، ومما خدعوهم ، واذا هم قد خدعوا أنفسهم ، وسلم الناس ولقد مضى الحاكم فى حيله لم يبرأ منها ولم يبرىء نفسه منها ، يريد أن يملأ نفسه غرورا ويريد ألا يفقد فى قلوب الناس ما أحب أن يكون له فى قلوب الناس ، فاذا هو يصطنع عيونا له من النساء ، يدسهن على الناس فى دورهم لينقلن له ما يجرى فى البيوت من شئون خاصة ، فاذا هو على علم كثير بما يدور هناك ، علم مرده الى هذه الحيلة الدنيئة ، يحيله هو الى علم بالغيب ، ليضفى على نفسه تلك الصفة العليا ، التى هى من صفات الله •

يروى ابن خلكان فيما يرويه عن الحاكم أنه كان جالسا فى مجلسه العام وهو حافل بأعيان دولته ، فقرأ بعض الحاضرين قوله تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم

لا يجدوا فى انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) والقارىء فى أثناء ذلك يشير الى الحاكم • وحين فرغ القارىء من قراءته ، وحين فرغ من اشارته انبرى رجل صالح فى المجلس فقرأ : (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له • ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب • ما قدروا الله حق قدره ان الله لقوى عـزيز) •

ويقول ابن خلكان : ان هذا الرجل الصـالح عندما انتهى من قراءته تغير وجه الحاكم ، وأراد أن يكشف عما فى نفسه ، فوهب للأول مائة دينار ، ولم يهب للثانى شيئا •

وبهذه دلك الحاكم على ما فى نفسه • دلك على أن ميله هنا لا هناك • وكان الناس يعرفون هذا له • وعرفوا أنه لابد واقع على هذا الرجل الصالح فمعاقبه أشد العقاب ، وخاف الناس على هذا الرجل الصالح أن يناله عقاب الحاكم ، فنصحوا له أن يغيب عنه وأن يختفى ، وخرج هذا الرجل للحج لينجو من الحاكم ، غير أنه لسوء حظه وحسن حظ الحاكم غرق فى البحر ، فاذا الحاكم يضيف الى نفسه شيئا ، واذا الغالون يضيفون الى الحاكم ما أضاف هو الى نفسه ، واذا هو بعد هذا يدعى الألوهية • وتبدأ الدعوة القائلة بأن الله قد تجسم فيه ، وأخذ أتباعه يعلنون عبادته وتوحيده وتنزيهه•

فثار المصريون الوادعون وأسرفوا فى الثورة ، واغتالوا كثيرا من الدعاة وكثيرا من أنصار المذهب الفاطمى ، وثار الحاكم هو نفسه فأسرف فى النيل من المصريين الوادعين ، وأطلق العنان للسودانيين، وكانوا جنده ، فاذا هم يبطشون بالمصريين الوادعين بطشا لا رحمة فيه ولا هوادة •

وعلى أية حال فلقد كان سخط الأهلين ذا أثر ، اذ نستطيع أن نقول : انه كاد يرد الحاكم شيئا ما الى عقله ، فلقد كانت كتب الأمان التى أعطاها الحاكم رعاياه من النصارى عام وفاته مفتتحة بما افتتح به الخلفاء كتبهم ، فيها ورع وفيها خضوع • اذ يقول : بسم الله الرحمن الرحيم من أمير المؤمنين عبد الله ووليه المنصور أبى على الامام الحاكم بأمر الله •

لاندرى أكان هذا لثورة الناس به ، وأن تلك الثورة ردته الى هـذا العقل بعد التورط الطويل ، أم انه الموت حين سعت اليـه سواعيه رده الى عجزه الانسانى فانقلب يؤمن بأنه لا حول له ولا قـــوة .

٢٢

وما أظن هذه الأخيرة التى جاءت للحاكم فى كتب أمانة شفعت له ولا حولت الناس عن رأيهم فيه وفى هذا البيت ، فلقد ظل الناس يعرفون الحاكم بصورته الاولى الطويله ، ونم يعرفوه بصورته الاخيرة القصيرة ، ولو أن الدعـوة الى الرأى الفاطمى انقطعت بعد موت الحاكم لأعطت الناس الفرصة فى أن يقولوا : ان الحاكم تاب وثاب ، ولأعطتهم الفرصـــة فى أن يعرفوه بآخره لا بأوله ولكن الدعـــوة الفاطمية بقيت ثم اشتدت ، فلم يشأ الناس أن يعدلوا عن رأيهم الأول فى الحاكم ، بل ضموا اليه ما جاء على يد خلفه ، فاذا هو منهم واذا هم منه على رأى ، واذ رأى الناس هو هو فى هـذه الاسرة ، لا ينظرون الى ما كسبوا على أيديها من مظاهر فى الحياة ، فلقد عزوا هذا الى تطور الحياة وعزوا غيره الى الفاطميين ، فلم يذكروا الفاطميين الا بما ابتدعوا من آراء أفســدت عليهم الحيــاة ، ولم يذكروهم بما كان فى عهدهم من وثبات لعت بها الحياة شيئا .

وما أظن نصيب الفاطميين بدعوتهم فى مصر كان خـيرا من نصيبهم بدعوتهم فى غير مصر بعد هذه الهزيمة الفكرية ، وما كان يعنى الفاطميين غير مصر بقدر ما كانت تعنيهم مصر ، فلقد كانت مركزا للدعوة والخلافة ، وكان غير مصر نواحى للدعوة لامركزا للدعوة والخلافة ، وكانت الدعوة فى غير مصر تضم الى الفاطميين مؤيدين أكثر مما تضم رعية ، لذلك لم يحم المؤيدون الدولة الفاطمية فى تلك الأطراف من أن تسقط حين خذلتها الرعية ، ولقد كان المؤيدون فى تلك الأطراف يلفتهم الى الدعوة أن لها دولة ، فحين ذهبت الدولة لم يعد يلفتهم اليها ما يغريهم بها ، ولقد فقد الداعون أنفسهم الحمية حين فقدوا السلطان الذى حموا الدعوة به ، ولقد كان همهم الأول

ذاك السلطان ليظلوا به الدعوة ويمكنوا لها ، فحين فقدوه فترت نفوسهم وباتوا يحمونها ويحمون أنفسهم بسلطانهم هم أنفسهم ، وما كان أضعف سلطانهم ، ثم ما كان أضعف دعوتهم ، ثم ما أكثر ما أضعفوها هم به من غلو مفسد ورأى مضلل ٠

وبعد أن قتل الحاكم ظهرت أخته ست الملك وأجلست ابنا للحاكم صبيا لم يبلغ الحلم على كرسى الخلافة ٠ وبايع له الناس ببقية فى قلوبهم من الخوف ، وبقية فى نفوسهم من المحبة ، فما كان الناس قد قووا القوة كلها على أن يخلعوا عن نفوسهم الخوف ، وما كان الناس قد قووا القوة كلها على أن ينزعوا من قلوبهم المحبة القديمة المتوارثة ، ثم ما وجد الناس من بينهم رجلا ذا بأس وذا حزم يلتفون حوله ويولونه .

من أجل ذلك مضى الناس يبايعون لهذا الصبى ، يسكتهم أمل ، ويغريهم طمع ، في أن يجدوا على يد الابن ما لم يجدوا على يد الأب، ثم هم قد وجدوا أخت الحاكم شاركت فى قتله ، فما بالهم لايزدادون أملا ولا يزدادون رجاء فى هذا الفاطمى الجديد ، ثم ان الحاكم قد مضي مقتولا فما بالهم لا يزدادون أملا ولا يزدادون رجاء بهذا الدرس الذى لقنه الحاكم ليرعاه من بعده .

وهكذا كانت هذه الأسباب كلها مما أغرت الناس بالسكوت ، ومما أغرتهم بالصبر ، ومما أغرتهم بأن يبايعوا ٠ والمصريون أميل الناس الى الأمن الا أن يفقدوا أسبابه كلها ، وأحرصهم على الطاعة الا أن يدفعوا الى غير الطاعة ، وأوفاهم قلبا بالمحبة الا أن تنمحى من قلوبهم أسباب المحبة ، وأحب النـــاس فى أن تمضى أمورهم رخاء لا يجنحون الى الاضطراب الا اذا حملوا عليه حملا ، هذا خلقهم لا عن ضعف واستكانة أو ذلة ، ولكنهم يحبون ألا يستعجلوا التجربة، وألا يقطعوا عليها سبيلها ، وألا يثيروا حولها ما يفسدها الى أن تسقط التجربة نفسها ٠ من أجل ذلك عاشوا يعون التجارب كاملة لا يحسون لوما فى دخيلتهم على محاولة منهم كانت ضد هذه التجارب التى مرت بهم ، وهم على ذلك مفيدون والخـــاسر غيرهم ، وهم أمة والخاسر فرد أو أسرة ، والأمم ذات تاريخ ممدود ، والأسر ذات تاريخ محدود ، وما تخسره الأسر ينضم الى تاريخ الأمم عظة تنتفع بها ، ودرسا تستملى منه تاريخها ٠

وخلا الأمر لسبت الملك دون الخليفة الصغير تدبره هي سنين أربع ، وخلفت الحياة ، وخلفت الخليفة الصغير فى رعاية خادم له، الى أن شب ، وحين شب شغلته الحروب بينه وبين الخارجين عليه بالشام الى أن مات سنة سبع وعشرين وأربعمائة ·

فولى الأمر من بعده ابنه المستنصر ، فيلقى محنة كانت فى الحسبان ، فلقد إنتقضت افريقية عليه ، وقطعوا الخطبة له ، وخطبوا للقائم العباسى ·

وما ان مرت هذه المحنة حتى تلتها محنة أخرى ، كانت هى الأخرى فى الحسبان ، فلقد كان للمستنصر ام ، وكادت هذه الأم أن تستأثر بالحكم دونه ، هى التى تصطنع الوزراء وهى التى توليهم · فاذا ساء ظنها بأحدهم أوغرت صدر ابنها الخليفة عليه فقتله ، فكان عدد من ولت من الوزراء ثلاثة ، وكان عدد من قتلت من الوزراء ثلاثة ، يذكر المؤرخون لها هؤلاء الذين ولتهم وأوعزت بقتلهم · كما يذكرون لها ولابنها الاستعانة بموال من الأتراك ليمكنوا لهما ، وما يفعل مثلها الحكام الا حين يفقدون ثقتهم برعيتهم، وكان الى جانب الأتراك عبيد ، كانوا هم الآخرون ليمكنوا لهما ·

وتقع الفتنة بين الأتراك وبين العبيد ، يثور هؤلاء بهؤلاء ، ويثور هؤلاء بهؤلاء ، واذا الأمور مضطربة ، واذا الناس فى هلع وفزع ، يصطلونها نارا أنى توجهوا ، ويقوى أمر الاتراك واذا هم يخرجون عن القاهرة الى الاسكندرية ودمياط فيستولون عليهما ، ويقطعون الخطبة للخليفة الفاطمى فى الاسكندرية ودمياط ، وفيما حول الاسكندرية ودمياط ، واذا زعيمهم يرسل الى الخليفة العباسى ببغداد يريد أن يجعل أمر مصر اليه مرة ثانية ، غير أن المستنصر صالحه ·

وكما تعرض المستنصر لهاتين تعرض لغيرهما من حروب جرت عليه ويلات وكلفته أموالا ، حتى ليقال انه غدا لا يملك غير بساطه الذى يجلس عليه ·

واذا كانت حال الخليفة قد انتهت الى هذا الذى يحكونه عنه · ترى الى أية حال انتهى الشعب ، ما نظنه هو الآخر الا بات خاوى الوفاض ، لا يملك ما يقتات به بله ما يجلس عليه ·

وما ساند المستنصر شعب مصر ، ولكن سانده جند من هنـا وجند من هناك ، فلقد استقدم بدرا الجمالى من الشام خوفا من أن يثور به الأتراك أخرى ، فحضر اليه بدر الجمالى فى جند من الأرمن وغيرهم من المأجورين ، ليمكن له فى الحكم ، وليثبت له عرشـه المتداعى ، وهكذا أحس المستنصر أنه غريب حيث يحكم ، ليس من ورائه أمة تشاركه الحكم ، ولكن من ورائه أمة ترخى له ليمضى فى تجربته • ولقد كان فى هذا درس يعيه المستنصر لو كان له أن يعى ، وما أظنه كان يفيد بعد من وعيه شيئا ، فلقد مهد له سلفه الى هذا السقوط ، ومهدت له أمه الى هذا السقوط ، ومهد هو نفسه لنفسه الى هذا السقوط ، وما أظن الدعـوة أفادت فى ظل هـذا الاضطراب المستمر ، وما أظن الفاطميين أفادوا شيئا حين أفسحوا للدعوة أن تأخذ صورتها المنفرة ، وما أظنهم الا ضيعوا على أجدادهم سعيهم المضنى ، وما أظنهم الا ضـيعوا هم على أنفسـهم ثمرة هذا الجهاد المضنى • ولقد كانت أمامهم الفرصة مواتية ليكسبوا شعبا الى جانبهم ، فاذا هم قد أبعدوا هذا الشعب عن جانبهم •

٢٣

ويموت المستنصر عن أولاد ثلاثة : أحمد ونزار وأبى القاسم • وكان المستنصر قد عهد لولده نزار • ويلجأ أبو القاسم الى عمته ليكون له الأمر دون أخيه الذى عهد اليه أبوه • وتعين العمة أبا القاسم على أن يكون الأمر لها ، وتشهد العمة أن أخاها المستنصر عهد لأبى القاسم ولم يعهد لنزار • وتثور الفتنة بين الأخوين نزار وأبى القاسم ، ويقتل نزار وينفرد بالأمر أبو القاسم •

وكما خرج أبو القاسم على أخيه خـرج عليه النـاس فكلفوه حربهم ، وحين خرج الناس على أبى القاسم طمع فيه عدوه من الفرنج فكلفوه حربهم ، ولئن خرج أبو القاسم من حربه مع الناس منتصرا فلقد خرج من حربه مع الفرنج منهزما ، فلقد أغاروا على بيت المقدس فقتلوا كثيرا وسلبوا كثيرا •

ويترك المستعلى أبو القاسم الملك ليليه من بعده ابنه أبو على الآمر بأحكام الله ، وكان عندها صغيرا لا يقوى على أن يركب جوادا،

الا اذا أعانه غيره على ركوبه • وهكذا يخرج هذا النظام الارثي في الحكم بالناس من ورطة الى ورطة ، يجعل الامم له يليها خلف عن سلف ، وليس للناس رأى فيمن يلي أمرهم ، وما كان أمرهم الا لهم •

وكان أمر هذا الخليفة الصغير الى أمير الجيوش الأفضل ، وما ان شب هذا الخليفة الصغير حتى تنكر للأفضل وقتله ونهب أمواله، وكانت شيئا كثيرا ، وحين ولى الأمر على جيوشه أميرا غير الأفضل لم يلبث أن تنكر الآمر لهذا القائد الجديد فقتله •

وكما عبث الآمر بحياة الناس عبث بحياته ، فلقد كان يؤثر لذته ويؤثر لهوه فضاق به أتباعه فوثبوا عليه وقتلوه •

وكان الأمر لا يزال لأتباع الدعوة دون أن يكون للمصريين أصحاب البلد ، وكان أتباع الدعوة لا يزالون بين يدى تجربتهم يخرجون بها من ورطة الى ورطة ، وكان المصريون لا يزالون ناظرين الى تلك التجربة ، يخرجون هم الآخرون من ورطة الى ورطة ، وكان أتباع الدعوة يرجون أن يرتقوا الفتق جاهدين ، وكان المصريون يرخون لضيوفهم ليبلغوا غايتهم التى يريدون ، وكانت ثورة الأتباع بزعيمهم كفيلة بأن ترد المصريين الى سكون ، فسكتوا ينتظرون •

ولم يجد الأتباع الذين ثاروا بالآمر فقتلوه بين أيديهم ابنا للوالى يصلح لأن يولوه • ولم يريدوا أن يخرجوا بالأمر الى غير من يكون له بهذا البيت صلة أو شبه صلة ، فهم يؤمنون بدعوة وهم يؤمنون أن هذه الدعوة متصلة بهذا البيت عن قرب أو عن بعد ، ان لم تكن عن نسب فلتكن عن شبه نسب ، فابتدعوا بدعة جديدة ظنوا أنها تصلهم بهذا النسب • فاذا هم يبتدعون أن الآمر رأى امرأة حاملا وأوحت اليه الرؤيا أنها سوف تلد ذكرا ، وأوحت اليه الرؤيا بعد هذا أن يكون هذا الولد هو الخليفة من بعده ، كما أوحت إليه الرؤيا أن تكون كفالة هذا الولد الى رجل له قرابة بهذا البيت ، هو عبد الحميد بن أبى القاسم ابن المستضىء •

وحين ابتدعوا هذا أقاموا عبد الحميد كافلا ، ولقبوه الحافظ لدين الله •

يجرى هذا كله والناس ينظرون ، يرخون لهذه التجربة كي تبلغ غايتها ، والدعاة غارون يخالون أنهم قد خدعوا الناس وما خدعوا غير أنفسهم ، ويخالون أنهم قد أقنعوا الناس وما أقنعوا غير انفسهم ، ان صح أنهم قد اقتنعوا .

ويمضى الحافظ يولى ويقتل من يولى ، ويستبد بالحافظ وزير من وزرائه فيحذف اسمه من الخطبة ويدعو لغيره ويحبس الحافظ ، ثم يثور بالوزير نفر من الأتبـــاع يقتلونه ويخرجون الحافظ من ســـجنه .

ويضيق الحافظ بأمره وأمر الناس فيجعل الأمر لابنه ليستريح هو ويريح الناس ، ولكن هذا الابن الذى اراد والده أن يحمل العبء عنه يختطفه الموت بعد شهرين ، وما بالحافظ أن يعود للأمر ثانية فيقيم له ابنا ثانيا .

ويطمع هذا الابن الثانى فى الأمر كله ، لا يريد أن يظل هو يحمل العبء ويظل أبوه خليفة له الغنم ، وحين عزم على أن يفعل نذر به أبوه ففتك بمن اجتمع الى ابنه كما فتك بابنه .

وما صفت الحياة للحافظ ولا أخلص له وزراؤه ، فلقد عـاش بينهم يقتل ويشرد ، حتى اذا ما ضاق بالقتل وضاق بالتشريد ، قنع بأن يحكم وحده ، وقنع بألا يجعل الى جانبه وزيرا .

ثم يموت الحافظ بعد عمر طويل حافل بالمتاعب ، ويترك هذا الحكم المضطرب لولده من بعده : الظافر بأمر الله .

وما نظن الحياة مضت صفوا للظافر ، كما لم تمض صفوا لأبيه ، وكما شقى الحافظ بوزرائه وأشقاهم معه شـــقى الظافر بوزرائه وأشقاهم معه . ولكن الحافظ خرج من ذلك الشقاء بعد أن قتل من وزرائه دون ان يقتل ، وخرج الظافر من هذا الشـــقاء بعـــد ان قتل من وزرائه وبعد أن قتل . وما قتل الظـــافر عن خـــلاف فى السياسة كما قتل سلف له من قبل ، ولكنه قتـــل عن عبث ذميم لا يليق بخليفة .

فلقد حكوا عنه أنه عشق ابنا لوزيره عباس بن أبى الفتوح ، وشاع ذلك بين الناس ، حتى ضج به عباس وضج به المخلصون لعباس • فأشار الأصدقاء على عباس أن يقطع الألسنة بقتل الظافر ، وأراد عباس أن يكون هذا لابنه نصير الذى تحدث النـــاس بهوى الظافر له ، ليكون ذلك افظع للاحدوثة وابلغ حجة على صلاحه .

وما قصر نصير فى أن يفعل ليمحـــو عن نفسه عارا كاد أن يلصقه به الظافر ، وهو البرىء ، مما أراد الظافر بعبثه الفاضح أن يحمله اياه ، وسأل نصير الظافر أن يزوره فى بيته ، فخف الظافر الى هذه الزيارة ، ومعه نفر من خاصته • وما كاد نصير يقع على الظافر حتى قتله ، وحتى قتل من معه ثم دفنهم جميعا فى داره •

ويثور أخوان للظافر يتهمان نصيرا بقتله ، ويثور عباس أبو نصير فيتهم الأخوين بقتله ، وتغلب ثورة عباس ثورة الأخوين ، ويريد أن يجعل له على الأخـــوين حجة فيقتلهما ثأرا للظافر • ويزيد ليؤكد الحجة له فيخرج ابنا للظافر ، كان لما يبلغ الخامسة ، يحمله على كتفه وينادى به خليفة ويلقبه الفائز بالله • ولكنه يحس الحـــرج فيستولى على ما فى القصر من مال وعتاد ، ويخرج به هاربا ، يصحبه ابنه ويصحبه أســـامة بن منقذ ، وكان أول من أشـــار عليـــه بأن يقتل الظافر •

٢٤

ويفزع النساء فى القصر لمقتل الظافر ومقتل أخـــويه معه ، ويلتفتن يمينا وشمالا الى من يكون لهن فى محنتهن ، فاذا هن يخترن الصالح بن رزيك ، وكان واليـــا على الأشمونين ، فيكتبن اليه ، ويسرع اليهن الصالح بن رزيك •

ولكن الصالح بن رزيك ما كاد يرد على هـــذا البيت أمنه حتى نفس عليه من دعونه من نساء البيت ، واذا عمة للفائز تدبر لقتله ، ويعلم الصالح فيسرع الى قتلها قبل أن تقتله ، ويجعل كفالة الفائز الى عمة له صغرى •

ويموت الفائز بعد حياة ساكنة ، فرغ فيها للشعر وللأدب ، والأمر لا يزال لصالح بن رزيك ، فيخف الى القصر ويحضر بين يديه أبناء الخلفاء ، لا يريد أبناء الفائز ، ولكن يريد أبناءه وأبناء غيره ، ليختار من بينهم واحدا • وكان الصالح يريد الأمر له لا يريد عليه مزاحما • فلم يختر أكبر الأبناء وانما اختار أصغرهم، وكان اصغرهم عند ذلك ابن رجل من البيت ، كان عباس ابو نصير قد قتله ، فبايع له الصالح وهو غلام ، ولقبه العاضد لدين الله ، ثم زوجه ابنته ، ليضمن الأمر له كله •

وما فعل هذا الصالح الا ليستبد بالأمر كما علمت ، وحين استبد الصالح بالأمر أثار نساء القصر ، وكانت أكثرهن ثورة على الصالح تلك العمة الصغرى التى كان الصالح عهد اليها بكفالة الفائز • فدبرت لقتله ، فاجتمع له السودان فأثخنوه جراحا ، وحمل الى بيته وهو يجود بنفسه •

ويحكون أنه بقي يوما يعالج سكرة الموت ، وأنه أفاق هنيهة ، فاذا هم يسمعونه يترحم على عباس ، الذى دبر لقتل الظافر •

وكأنى بالصالح حين ترحم قد ندم على أنه لم يفعل مثله ، وندم على انه اعان من غدر به •

وما نظن العاضد أرضى الصالح فى قبره حين ولى الوزارة ابنه رزيك بعده •

وما نظن العاضد أرضى الصالح فى قبره حين مكن لابنه من الأخذ بثأر أبيه ، فقتل العمة التى دبرت لقتل أبيه ، وقتل معها غيرها ممن اشترك فى قتله ، وما نظن الصالح مضى دون أن يحمل العاضد تبعة دمه ، ودون أن يمضى وفى نفسه غصة منه ، ودون أن يترك أمر مقتله الى الله ينتقم له ، ولقد انتقم الله للصالح عجلا ، ومد للعاضد فى حياته ليلقى مصرعا أشد من مصرعه ، مصرع الدولة التى مهد لها أسلاف له سابقون ، وفرط فيها خلف لا حقون ، كان هو آخرهم ، وكان ذلك المصرع على يديه •

فلقد اشار العاضد على رزيك بن الصالح بأن يصرف عاملا له على قوص ، وكان ذلك العامل على قوص هو شـــاور ، وحين عزل شاور جمع حوله من جمع وقصد القاهرة ، ويشاء القدر أن يقـع رزيك أسيرا ، قبض عليه رجل من رجال شـاور ، وما ان وقعت عليه يد شاور حتى قتله .

ويستقبل العاضد شاور غير ملق بالا لموت رزيك ، واذا هو يولى شاور الوزارة ، وكأنه قد أشار بما أشار لذلك ، واذا هـو يطلق يد شاور فى أموال بنى رزيك فينهبها نهبا ، لا يبقى لأهلهـا منها شيئا ، وكأن القدر أراد أن يضم الى سيئات بنى رزيك سيئة أخرى ليضاعف له النكال ، ولكن شاور الذى نال ما نال ، اذا هو يخرج عما نال ، لتتم القصة ، فيغلب شاور على أمره رجل كان من أصفياء الصالح بن رزيك .

ويخرج شاور عن الوزارة كما خرج من قبل عن قوص ، وكما أخرجه عن قوص ابن لصالح أخرجه عن الوزارة صفى لصـــالح ، ولكن شاور حين خرج عن قوص ، جمع جموعه يقصد القـــاهرة ، وهو حين خرج عن الوزارة قصد الى الشام وحيدا .

ولقد دبر شاور لأمره حين خرج عن قوص ، ثم دبر لأمره حين خرج عن القاهرة الى الشام ، فاذا هو ينزل على الملك العادل نور الدين بدمشـــــق مستصرخا ، واذا هو يفرض على نفسه ثلث جباية مصر ، ان جهزه العادل بجيش .

وعاد شاور الى مصر ، ولكنه لم يعـــد وحيدا ، عاد يصحبه جيش لنور الدين وعلى رأسه أسد الدين شيركوه ، ودخل أسـد الدين شـيركوه مصر بعد ان انتقم له من مخرجه عنها ، وعاد شاور وزيرا كما كان من قبل .

يجرى هذا والعاضد على كرسيه ، يخرج عنه وزيره على تلك الصورة التى مرت بك ، ويعود اليه على تلك الصورة التى تقرؤها ، وليس له فى الأمر شىء ، وكأن الدولة ضيعة متنازعة من فاز فيها بشىء غلب عليه ، والعاضد فى كرسيه يعنيه أن يجنى من الرزق ما يخلص اليه .

ولكن للقصة بقية فهى الى هنا لم تبلغ تلك النهاية التى انتهت بالدولة ليشهدها العاضد وليبلغ الانتقام مداه .

فلقد نكث شاور بعهده لأسد الدين وسلطانه العادل نور الدين ، فخرج أسد الدين الى الشام يحمل معه تلك الصحيفة الغادرة .

ورجع أسد الدين من الشام ليعود منها اكثر عدة واكثر عددا ، ويدخل اسد الدين مصر ويقتل شاور ويلى اسد الدين الوزارة . وهكذا يهب العاضد الوزارة لكل طارىء عليه ذى قوة ، لا يعنيه كيف دخل عليه هذا ولا يعنيه كيف خرج عنه ذاك ، حال من الضعف تدعو الى الرثاء . ولكن الأجل لا يطول بأسد الدين ، فاذا هو يموت بعد شهرين ، وما نعم بالوزارة غير أيام ، ويميل العاضد الى ابن أخ لأسد الدين وهو صلاح الدين ، رآه العاضد صغيرا فظن أنه غالبه على أمره ، ورآه دون رجال أسد الدين فخال انه يملى عليه .

ولكن الظن الذى ظنه العاضد لم يقع منه شىء ، فاذا صلاح الدين يغلب العاضد قوة ، واذا هو يستبد بالأمر دونه ، واذا هو يقضى على العاضد ، ويقضى على أسباب دعوته ، واذا هو يهدم دار الحكمة بالقاهرة التى كانت مدرسة للعقيدة الفاطمية ليبنى مكانها دارا للشافعية ودارا للمالكية ، واذا هو يعزل قضاة الشيعة ليولى مكانهم قضاة من الشافعية .

وكأنى بالعاضد حين قبل أن يدخل عليه الوزارة رجل من رجال العادل نور الدين ، كان قد قبل أن يدخل عليه العادل مملكته ، وكأنى بالعاضد حين ضعف للأولى كان فى خلده الضعف للثانية .

٢٥

وبات نور الدين حين احس ضعف العاضد وهوانه يفكر فى شىء ، وحين رأى صلاح الدين كاد أن يكون له الأمر دون العاضد ، أنعم يفكر فى هذا الشىء .

وحين ضعف العاضد وهان فكر نور الدين فى فض هـــذه الدولة التى خرج أهلها على العباسيين ،، وهم ملوك لينشئوا دولة ، وخرج أهلها عن الملك والعباسيون ملوك مارعوا هذه الدولة ، وحين وجد صلاح الدين مستأثرا بالأمر دون العاضد أنعم النفكر فى هذا الشىء يرى أن يكون خروج هؤلاء الأهل عن هذه الدولة على يديه .

ولقد ارسل نور الدين الى صـــلاح الدين يغريه بأن يدعـو للمستضىء ، ويقطع الدعوة للعاضد .

وكان صلاح الدين يريد شيئا ويخشى شيئا ، كان يريد أن يفعل ذلك ليجنى هو الغنم ، وكان يخشى أن يفعل ذلك عن أمـــر نور الدين فيشركه نور الدين فى الغنم ، فأخـــذ يمطل نور الدين متعللا بما يحذره من مخالفة أهل مصر ، وما أساغ نور الدين تلك التعلة فكتب اليه يستحثه أن يفعل .

وجلس صـــلاح الدين الى أصفيائه يستشيرهم فاذا هم كلهم مجمعون على ما أراد نور الدين ، غيرمجمعين على مارآه صلاح الدين .

ولقد كان صلاح الدين يستملى من حرصه على هذا الملك الذى كان يطمع فيه ، فغشى ذلك على عينيه أن تنظرا بعيدا ، وكـــان أصفياؤه يستملون من حرصهم على حياة صلاح الدين ففتحت أعينهم لتنظر بعيدا .

وغلب حرص أصفياء صلاح الدين حرص صلاح الدين ، ويعلو احدهم المنبر مع اول جمعة من المحرم قبل الخطيب فيدعو للمستنصر فلا ينكر أحد عليه شيئا .

وأنى للناس أن يقولوا شيئا ، وقـــد أرخوا للتجربة لتبلغ مداها ، وهاهم هؤلاء رأوا التجربة قد بلغت مداها فسكتـوا عند نهايتها لم يقولوا شيئا يطيل فى عمرها ، كما سكتوا عند بدئهـــا لم يفعلوا شيئا يقف فى سبيلها .

وحين أحس صلاح الدين سكون الراحة فى نفـوس النـــاس شجع على أن يخطو الى الأمام خطوة أخرى ، فما أن أظلت الجمعة

الثالثة حتى كان الخطباء أنفسهم على المنابر يحذفون اسم العاضد ويخطبون للمستضيء أمرهم بذلك صلاح الدين فما قالوا شيئا ، وسمعهم الناس فلم يقولوا شيئا .

وان القدر الذى أصاب العاضد بهذه أصابه قبلها بمرض حجبه عن الناس رحمة به أن يسمع ، ورحمة به أن يرى حتى لا يثقل عليه العذاب ، وحتى لا يعجز عن حمل العذاب .

ومضى العاضد بمرضه لم نعلم على أية صورة مات ، أخليفة ولى أم غير خليفة . ومع الموت يستوى من عظم ومن صغر فى شىء ويختلفون فى شىء ، يستوون فى أنهم ماتوا ويختلفون فى أن من مات عظيما يبقى ذكره عظيما ، وأن من مات صغيرا يبقى ذكره صغيرا .

وصلاح الدين الذى أساء الى العاضد حيا لم يرد أن يسىء اليه ميتا ، والذى هون من العاضد موجوداً ، لم يرد ان يهون منه غير موجود ، فلقد جلس صلاح الدين الى الناس يتلقى العزاء فى العاضد يرى ذلك واجبا عليه لخليفة راحل، ويرى ذلك واجبا عليه ليكسب عطف الناس عليه فلا يقال شامت .

ويضع صلاح الدين يده على ما ضم قصر العاضد ، فاذا هو قد وضع يده على كنوز لا تحصى من حلى وجواهر وألوان غير هذا وذاك من كل نفيس وغال ، واخرج جميع من فى القصر من أمة وعبد، فباع شيئاً ووهب شيئا وخلا القصر من سكانه وأصبح كأن لم يغن بالأمس .

٢٦

ومضت الدولة الفاطمية عن أربعة عشر خليفة ، حكم منهم بافريقية : المهدى والقائم والمنصور ثم المعز الى أن صار الى مصر ، والعزيز والحاكم والظاهر والمستنصر والمستعلى والآمر والحافظ والظافر والفائز والعاضد .

لقد حكمت هذه الدولة منذ ظهر المهدى بسجلماسة فى ذى الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين ، الى أن مات العاضد ، نحوا من مائتين واثنتين وسبعين سنة .

وحين انتهى الى بغداد انتهاؤها عمتها البشرى وازينت وتعالت فيها صيحات الفرح ، وخلع الخليفة العباسى على نور الدين ، كما خلع على صلاح الدين ، واذا الاعلام السود تعود فترفرف على مصر ، كما رفرفت عليها من قبل .

غير أن صلاح الدين لم يخلص له الأمر كله صفوا ، فلقد خرج عليه قوم من الشيعة بمصر وبايعوا لداود بن العاضد ، فخرج اليهم صلاح الدين ، وقتلهم عن آخرهم وبعد حين قليل خرج ابن لداود ، وهو سليمان ، واختار الصعيد مكانا له ، فقبض عليه صلاح الدين وحبسه الى ان هلك .

كان هذا فى مصر وكان شىء مثله فى المغرب ، ففى فاس خرج محمد بن عبد الله بن العاضد ، يدعو هناك لنفسه ، وتسمى بالمهدى ، فاذا هو يقتل ، واذا هو يصلب بعد ان يقتل .

وما وجد المقتولون منهم بآخرهم وجدوه أولا ، فلقد اثار المقتولون اولا ، يوم ان كان هذا البيت على ابواب الحياة : النفوس . وحرك القلوب ، وهلع لها القاتلون على الرغم من انهم كانوا يدافعون به عن انفسهم فيما يخافون ، ولقد مضى المقتولون ثانيا يوم ان ودع هذا البيت الحياة ، وما اثاروا رحمة عليهم فى القلوب حين ودعوا ، ولكن اثاروا اسى ، واثاروا عبرة حين فارقوا .

ولقد انطوت بانطوائهم صفحة ذلك الجهاد المرير الذى بدأ جاهليا وانتهى اسلاميا ، والذى صدق نبوءة كاهن كما تنبأ بها وفوق ما تنبأ بها ، فما نظن الدماء التى أريقت كانت قليلة ، وما نظن الأرواح التى ازهقت كانت قليلة ، وما نظن الذين شردوا او عذبوا أو اضطهدوا كانوا قليلين . وما شغل هذا الخلاف بيتين أو ثلاثة ولكنه شغل الأمة الاسلامية كلها ، شغلها به فتنة فرقت عليها

كلمتها ، وشغلها به حربا ارهقتها ، وشغلها به رايا بلبــــل عليها عقيدتها . فاذا هي قد ذاقت الحياة التى ذاقتها هــذه البيوت مرة قاسية مبلبلة .

ولقد مضت هذه البيوت لم يبعد منها غير أســمائها ، وبقى بعد أسمائها خيط موصول لهذا البيت العاوى ثم الفاطمى ، ولقد دخل هذا البيت الحياة يهيىء له الناس عن عقيـــدة ، ومضى فى الحياة يؤسس له الناس هذه العقيدة ، وخرج عن الحياة وقد بقيت له هذه العقيدة .

ولكن هذه العقيدة ما خلقت حتى تفرقت ، وما تفرقت حتى فرقت الناس معها ، وما فرقت الناس معها حتى فرقتهم عن الأمة . وما نظن مثل هذه الفرقة دخلت بسلام ، ولا عاشت فى ســلام ، وما أحرصنا على أن تنتهى بسلام .

وما دخلت هذه العقائد المفرقة الا على ألسنة النافسين عـلى الأمة العربية وجودها ، وما نظن حاضر الأمة العربية خلا مما خلا منه ماضيها ، وكما بدت الفرقة فى الماضى تحمل أسبابها ، كذلك هى فى الحاضر تحمل أسبابها .

غير أن السعيد من وعظه تاريخه وافادته عبره ، يعرفه صريحا ليفيد منه صراحة لا تعرف المواربة ، ويعرفه على حاليه من مرارة وحلاوة ليفرق بين قسوة المرارة ولذة الحلاوة ، ويعرفه غير ضجر بعيوبه ليطهره هو من عيوبه ، وغير مغرور بحسناته ليزيد هو على حســناته .

بهذا يتصل التاريخ : يقيم آخره معوج أوله ، ويتم آخره ما قام فى أوله ، وبغير هذا ينقطع التاريخ فلا يتصل آخره بأوله .

* * *

مطبوعات
الشعب

* الموسوعة التاريخية الميسرة

تؤرخ للصراع الذى نشأ فى صفوف الأمة العربية منذ مولد التوأمين : أمية وهاشم ولازال ممتدا على مر العصور والدهور الى يومنا هذا على صور مختلفة . وتبرز فى ثنايا هذا الصراع الممتد مكان العظة والعبرة على الأجيال المقبلة تفيد مما غرقت فيه الأجيال السالفة .

- مغيب دولة (نفد وتحت الطبع)
- ميلاد دولة (نفد وتحت الطبع)
- قيام دولة (طبعة أولى دار الشعب)
- نهاية المطاف (طبعة ثانية دار الشعب)
- الدولة الأيوبية (نفد وتحت الطبع)
- الدولة الأخشيدية (نفد وتحت الطبع)
- عصر الدويلات (تحت الطبع)
- العصر الحاضر (تحت الطبع)

مطابع دار الشعب بالقاهرة

رقم الايداع بدار الكتب — ١٩٧٨/٢٩١٠
الترقيم الدولى — ٩٧٧-٢٩٦-١٠٨-٣ ISBN

هذا الكتاب

●● يعتبر هذا الكتاب حلقة من حلقات التأريخ لذلك الصراع المتصل بين العرب .. وهو الصراع الذى بدأ على الحكم جاهليا واستمر بعد ظهور الاسلام دولة بعد دولة .

●● ويضم هذا الكتاب الحلقة الأخيرة من ذلك الصراع الذى بدأ بين الهاشميين والأمويين وانتهى بين العلويين ـ الفاطميين ـ والعباسيين وهو الصراع الذى بدأ على أرض غير أرض مصر وانتهى على أرض مصر .. ليؤكد أن مصر ظلت دائما تعطى القضية العربية أكثر مما تأخذ ، تصبر لها صبر الأم البارة لولدها ، يعنيها أن يكمل ولايضنيها ما تبذل .

●● واذا كانت دار الشعب قد أصدرت من قبل ((قيام دولة)) للأستاذ ابراهيم الابيارى وهو الكتاب الذى يؤرخ لقيام الدولة العباسية فانها لترجو أن تعيد طبع ((ميلاد دولة)) و ((مغيب دولة)) لكى تكتمل تلك السلسلة التاريخية النادرة بين يدى القارىء .

والله الموفق

((دار الشعب))

الثمن ٤٠ قرشا